سر قرطبة 2

في ظلال الحاجب المنصور

إسحاق الجابري

رواية

سر قرطبة

"الجزء الثاني"

في ظلال الحاجب المنصور

رواية تاريخية

إسحاق الجابري

عنوان الكتاب

سر قرطبة2 "في ظلال الحاجب المنصور"

تأليف

إسحاق الجابري

الطبعة

الأولى 2026

التدقيق اللغوي والإخراج الداخلي:
الحذقة لخدمات ما قبل الطباعة
Whats: +967779284583

©جميع الحقوق محفوظة
يسمح بنشر محتوى هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين وسم:
(#سر_قرطبة2).
ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

المقدمة

كيف تكتب مدينة سيرتها فوق رمادها؟

وكيف يحيا اسم في قلب التاريخ إذا احتشدت على ضفافه النيران والسيوف وأقنعة الخوف؟

هذه حكاية قرطبة؛ تلك اللؤلؤة التي أشرقت فجرًا في سماء الأندلس، ثم سُجِّلت عليها ديباجة الفقد والرجاء، فصارت كل حبة حبرٍ على أعتابها منارةً للمعذبين، وكل قصيدة تغنت بها العجائز ميثاق حياة.

في قرطبة، لا يغلب الموت الحلم، ولا يُطفئ الجوع الأنشودة. هناك، بين ظلال القصور وجذور الزيتون، وُلد للمدينة حرس من الوراقين، ونساء يكتبن في الدمع أسماء بناتهن، وأرواح تعبت من النسيان.

وهناك أيضًا، في قلب العاصفة، انتظر الحبر أن يصدق البلاء على القلم... ليثبت للعالم أن العلم يُولد طفلاً مبللاً بالدموع، ويشيخ أميرًا هاربًا من الاحتراق.

هذه الرواية ليست عن مدينة أُطفئ نورها، بل عن نور لا يُطفأ، مهما ثقلت طبقات الرماد على الصدور.

الإهداء

إلى كل من حمل كتابًا في زمن يُحرق فيه الكتاب،
إلى كل أم خبأت قصيدة تحت وسادة صبيها الجائع،
إلى الآباء الذين تشبثوا بالسطر الأخير حين ضاع كل شيء،
إلى أطفال لم يجدوا من مدينتهم إلا الذكرى،
إلى المنفيين في الأيام والذكريات،
إلى من يدرك أن الكتابة بحد ذاتها مقاومة،
وأن الكلمة مثل النور... لا تُطفأ.

التمهيد

يا من تطالع هذه العدسة الحزينة،

اعلم أنك تدخل مغارة زمن يئس من النجاة، لكنه أبى أن يموت دون أن يحكي قصته.

في "سر قرطبة – ظلال الحاجب المنصور" لن تقرأ فحسب عن حرب القلم والسيف، بل ستسافر في ريح الذكرى، حيث كل حرف جسر للخلاص، وكل خيانة وجه آخر للخوف، وكل دمعة جسد يكتب على صفحة الليل عناد الجمال في وجه العدم.

هذا التمهيد ليس بوابة لفصل وحسب، بل هو صحوة حلم دام ألمًا وعاد أملاً في زمن الرماد.

هنا ستلتقي بنساخ دفنوا الحقائق تحت الأرض ليبحث عنها الأطفال حين يجيء الفجر من بوابة الغربة.

ستسمع أنين النساء اللواتي صبرن حتى انبعثت من العتمة قصائد، وترى كيف تنتقل المدينة من حافة الخراب إلى الجهة الأخرى من القصيدة، وتتعلم أن الهزيمة درس، والمقاومة ذاكرة، وأن الإرث الذي لا يُطفأ هو ما يُولد في القلب ويُروى على ألواح الدهر... إلى ما لا نهاية.

حين تقرأ... كن مستعدًا للصدق، ولأن تتبع شعاع النور، كما لو أنك تبحث عن خلاصك وسط دخان النسيان.

الفصل الأول

هواء برائحة الخوف

كان الهواء في قرطبة في تلك السنة يحمل طعمًا مختلفًا؛ طعمًا معدنيًا يكاد يلوح في الفم مثل خطر لا يُدرَك، يشوبه توقّع مرير لشيء قادم لا يعرف الناس اسمه بعد. تتناهى للأنوف رائحة الورق القديم الذي ينتظر مصيره المحتوم في أفنية المكتبات المنسية، ويخترق الأعطاف شعور متزايد أن المدينة، درة الدنيا وتاج المعرفة الإسلامية، بدأت تستنشق أنفاسها الأخيرة.

كانت الشمس كل يوم تشرق فوق أسوار قرطبة فتجدها أكثر ذبولاً، أكثر صمتًا، وأكثر قلقًا كشيخ جليل يرتدي برد الشتاء باكرًا. وتأتي الليالي محمومة بهواجس الرجال والنساء؛ أرغفة الخبز تزداد مرارة، وحديث العوام يتضاءل حتى يكاد يختفي من أزقة الحي العتيق. صمت خامد نفذ إلى شقوق الجدران وسكن عيون الأطفال، كأن المدينة تحاول أن تبتلع نفسها قبل أن تنهشها مخالب الغريب.

لم تكن تلك البرودة قادمة من جبال سييرا مورينا الشاهقة، بل تتغلغل من قلب المدينة: من قصر الخلافة، من ظل رجل باطش نما في العتمات حتى غدا كتلة ظلام تلقي بظلها الكثيف فوق كل زهرة، كل فكرة، كل فرصة للحياة. كان الناس يتهامسون عن ابن أبي عامر، محمد الذي سيصير بعد حين "المنصور بالله"، الملك الحقيقي خلف ستار الخليفة هشام المؤيد؛ هذا الشاب الجالس على كرسي من حرير وذهب لا يزن شيئًا أمام سلطة الرجل الذي يحرك خيوط البلاد بمهارة الدمى.

في مجالس القصور الزهرية، لا يُسمع إلا هسيس الخوف؛ خرائط الساسة تُرسم وتُمسح على مآدب النبيذ البارد، وأعين الجواسيس تتلصص من خلف الستائر الثقيلة. عالم من المكر والدهاء يطبق على المدينة؛ كل اختلاف يُعد بذرة فتنة، وكل سؤال يُعتبر مسمارًا في نعش الأندلس الموحدة. لم يكن المنصور يكتفي بإسكات خصومه وحسب، بل أعلن حربه أيضًا على أخطر أعدائه: الفكر الحر.

بدأت المحارق بأسلوب لا يسمعه إلا أصحاب العلم: في أفنية المكتبات العريقة التي كانت كبرياء قرطبة، راحت الكتب تختفي ليلاً، واللفائف تُحرق وتُنثر رمادها طيور الليل على اليراعين العمياء. العلماء والفلاسفة، الذين كانت حلقاتهم تضج في مساجد المدينة وجوامعها، صاروا يتمتمون في الزوايا، يُقسمون الأيمان على الصمت، أو يختارونه ملاذهم الأخير. الصمت... ذلك السجن الرحب الذي يحرس الجسد لكنه يُطفئ الروح.

في أحد أزقة الوراقين، كان عمر بن يوسف يجد ملاذه. شاب في العشرين، جسده النحيل يقاوم الجوع والخوف معًا بقوة هشة كالقلم الذي يُمسكه كل نهار وليلة. عيناه الداكنتان الواسعتان تحفلان بأحلام لم تولد بعد، وأصابعه ملطخة دومًا بحبر الصمغ والعفص: ناسخ، بل راهب حرف وكاهن طقوس الكلمة.

كان لعمر عالمه في ورشته القديمة: جدران من طين، وقباب عالية، وسقف يقطر أحيانًا في الشتاء، وروائح الحبر والمخطوطات

تعيش فيه كما تعيش الأرواح في الأجساد. في ركن من الورشة يتكدس الورق والبردي والرق، وألف ذكرى صدى للحكايا؛ جملة منقوشة بخط والده -يوسف الناسخ- تحرس الباب: "كل كاتب يترك روحه في كلماته، وحراس الكتب أمناء على الأرواح".

ذات ليلة كان فيها الشفق يصبغ السماء بأرجوان الحنين، دلف إلى الورشة رجل جاوز السبعين، كان واحدًا من أشهر جامعي الكتب في المدينة. بدا وجهه شاحبًا مثل مخطوطة خافتة اللون طمرها غبار الزمن، وعيناه زائغتان تلمعان بقلق. وضع بين يدي عمر مخطوطة ملفوفة بالحرير: "أريدك أن تنسخ هذا الكتاب، يا بني". ثم همس: "هناك صفحات... يجب عليك حذف بعضها. الحديث عن الحرية والعقل... المنصور يراها أفكارًا خطيرة، فلا تغامر يا ولدي".

تردد صوت أبيه في روحه: لا تخن الحرف، لا تخن روح الكاتب. رفع عمر رأسه وأشار بلطف وصرامة: "لا أقدر يا سيدي، خيانة كلمة جريمة أفدح من حرق مدينة". ارتعدت يد الشيخ، ثم انسحب وهو يتمتم عن حماقة الشباب وقسوة الفكرة.

في تلك الليلة، جلس عمر أمام آلة نقشه متأملاً. هل تُرى تستحق الحروف أن يُخاطر من أجلها بكل هذا؟ هل يمكن للإنسان أن يختار الموت من أجل فكرة لم تُكتب إلا بحبر؟ ترقرق الدمع في عينه، ثم تذكر أيام طفولته...

***

فلاش باك: رائحة الحبر الأولى

كان عمر صغيرًا، لا يكاد يرفع القلم فوق الورق. جلس على الأرضية المبلطة بالتراب، يراقب والده يخط الآيات بالخط الكوفي مثل صانع يسحر الكون. كان الحبر فوحًا عبقًا يملأ الأنفاس دفئًا وأمانًا؛ قال أبوه: "هذه ليست مجرد كلمات، بل أرواح. لا تكن خائنًا للأرواح أبدًا".

مرت السنون، وغادر جسد الأب وبقي صوته، وبقي الحبر يربط عمر بذلك العهد القديم: أن الكتاب جسر.بين الأزمنة والأرواح، وأن الناسخ إذا خان خان نفسه والعالم كله.

***

وعلى الجانب الآخر من المدينة، كانت حياة أخرى تنتحب بين جدران القصور.

زينب ابنة تاجر الحرير الشهير، كانت تخرج كل ليلة إلى الشرفة المزينة بالعاج تنتظر الليل، تسترق دقائق قليلة تظنها حرة تحلق فيها بين النجوم. فتاة تغلب على جمالها ثورة فكرها، وعيونها تحمل في انعكاسها صور خرائط الكون التي حفظتها من جدها الكبير، الفلكي الذي زرع في قلبها شغف العد والأسرار.

في عالم زينب، الكتب كنوز أغلى من الحرير والجواهر، وحلمها أن تلمس حركة الأفلاك بعقلها وتفهم لم يسقط القمر. غير أن والدها تغير: صار يخاف المنصور، ويخاف أن تقترب ابنته من مصير

العالمات المحترقات. حلمها انكسر تحت وطأة صفقة زواج تُرتب في الغرف الخفية: زينب لابن قيس بن معاذ، قائد المنصور الدامي الطموح... كانت بذلك سلعة في هندسة السلطة، وسجينة تختنق وسط الزخرف والكحل والعنبر.

***

فلاش باك: إرث النجوم

ليل قديم وسماء صافية، وجده يشير إلى المجرّة: "النجوم يا زينب هي ميراثنا، لسنا سوى علامات عابرة يكتبها الله على صفحة الليل، لنفهم القوانين الأعمق من سلطان الملوك".

***

ذات مساء جلست زينب تحدق في المرآة تسأل: "هل أموت هنا بين السجاد الفاخر مزينة بحلي أكرهها وزوج لا أفهم روحه؟ أم أستطيع أن أتحرر وأنقذ علم جدي من الدمار؟". كان الورق في مكتبات أبيها يُرتب سرًا، والكثير منه قد تقرر أن يُسلّم إلى أرشيف المنصور. وغدًا ربما لن يبقى سوى صدى العلم في ذاكرة قلبها.

كان لقاء زينب بعمر، وهما لا يعرفان بعضهما، لقاء نجمين تحكمهما جاذبية لا تشبه جاذبية الأرض، للاجتماع أو الصدام الآتي.

وفي ليلة خانقة، جلس المنصور في مكتبه في القصر، يراقب خريطة الأندلس، متأملاً "سر قرطبة": ذلك السر المدفون في طي

الوثائق القديمة، والذي يظن أنه باب قوة لا يُقهر. يلمح في الهامش أن ثمة من يبحث مثله عن ذلك السر. "من يسبق؟ ومن ينجو؟".

المدينة تلفظ أنفاسها تحت ظلال هاوية، والكل ينتظر شرارة الثورة أو لحظة الانكسار.

بين العتمات، أطفأ عمر قنديله ليختبئ في أحضان الليل، لكنه سمع خدشات خافتة منتظمة على الباب. تعرفها قلبه قبل أذنه: الشيفرة القديمة بين الوراقين للتحذير من الخطر. ثلاث خدشات، ثم اثنتان...

تجمّد. من يعلم شيفرة النساخ غيرهم؟ أتُرى الخطر على عتبة بابه أم عتبة المدينة كلها؟

***

... توقف الزمن عند عتبة الباب التي ارتجف خشبها تحت وطأة الرعب المتسلل كريح باردة من عالم آخر. في عينه توهجت ذاكرة ألف حكاية عن الشيفرة القديمة - ذلك الرمز البسيط الذي لم يكن يعرفه سوى من شب على حراسة الكلمة، كما يشب الجندي على السلاح. كلا، ليس الخطر زائرًا غريبًا هذه الليلة. هناك ما هو أعمق: كأن ظل المنصور قد اخترق عتمة الزقاق، ودس سمه في الهواء حتى أصبح الخوف كائنًا ماديًا يتنفس مع كل نفس.

شد عمر عباءته حول جسده، مترددًا بين رغبة عارمة في الفرار وواجبه المقدس نحو كلماته وأبيه وقرطبة نفسها. كان قلبه يدق في

صدره كدفوف مجنونة ليلة عيد حُظر فجأة - ضجيج الداخل يناطح هدوء الخارج، جعل يده على المزلاج ترتجف. نفس عميق... ودفع الباب قليلاً حتى انسل خيط ضوء ضعيف بين الظل والغموض.

لم ير في بادئ الأمر إلا سواد الليل يزحف إلى عتبة ورشته، كأن الليل نفسه جاء يزوره. ثم رأى ظلاً بشريًا يقترب بحركة خفيفة، لكنه ظل يحافظ على مسافة حذرة.

لم يجرؤ عمر على النطق قبل أن يتيقن، لكنه همس بصوت اختلطت فيه الرجفة:

– من؟

جاءه الجواب هامسًا، مرتجفًا لكنه واثق:

– "حارس الأرواح... افتح".

عندها فقط عرف أن الخوف أدخله من باب الذكرى إلى باب المصير؛ "حارس الأرواح" كان الاسم السري الذي ورثه النساخ المخلصون منذ أجيال - لقب أبيه وحلم طفولته المقتول. فتح الباب أوسع، ليطل منه رجل معمر بوجه ظلله التعب ونعاه الشيب، عيناه سوداوان كأحشاء الغابة في ليالي المطر الشديد.

دخل الرجل بخطوات محسوبة، وبدأ يتفحص الورشة كما يفعل طائر جريح يرتاب من فخاخ البشر. عند الضوء الخافت الملقى من القنديل، رأى عمر بقايا حبر قديم يجف على أصابع الغريب. لم يكن

ذلك وجه خائن ولا وجه حارس بسيط، بل وجه من خبر الليالي والخيانات وعشق الكتب حتى صار وجعه مدفونًا في مقلتيه.

جلس الرجل على أقرب مقعد، وأزاح قلنسوة صوفية عن رأسه.

– "اسمي يوسف"، قالها بصوت يكاد يكون صدى لزمن آخر. كان ثمة كسر في نبرته، كأن آلاف الدموع ابتلعتها روحه ولم تسقط قطرة واحدة منها أمام أحد.

نظر إليه عمر مترددًا، بين احترام يفرضه سن الرجل، وغموض يجعله حذرًا كسارق في الليل.

قال يوسف وهو يمسح أصابعه على ألواح الطاولة:

– "قرطبة تحتضر يا بني. وهناك من يُجلدون ظهورنا ولا يعرفون أنهم يقتلون الذاكرة. أنت واحد من القلائل الذين بقي لديهم ما يخسرونه... وما يستطيعون إنقاذه".

أراد عمر أن يجادل، أن يتهرب أو يسأل أو يبكي، لكن صوته اختنق. فجأة شعر بثقل كل المدن المقهورة، رأى في وجه يوسف انعكاس أبيه الراحل، وسمع حشرجة أمه يوم دفنوه، وصرخات زملائه النساخ الذين أُحرقت كتبهم في صمت بلا شهيد.

رفع يوسف ورقة ملفوفة بعناية ناسخ حقيقي. ببطء فتحها فوق الطاولة، فانبعث منها عبق الزمن وخوف العقود المكظومة. "هناك مهمة لك... إذا قبلتها ستكون عتبة الحياة والموت سواء، وستختبرك حتى حدود الروح يا عمر".

ظل الاثنان يحدقان في بعضهما بصمت توقف فيه الزمن: خوف ورجاء وموت صغير يتربص في زوايا الورشة العتيقة. في تلك اللحظة، عرف عمر أنه لا سبيل للفرار من قدر الكلمة، وأنه منذ أن شم رائحة الحبر في طفولته، وهو مدفوع بقوة خفية نحو هذه اللحظة بالذات.

وفي مكان آخر، كانت زينب تجلس في نافذتها، رحى التفكير تطحن رأسها كأنما ثقل السماء أطبق على قلبها. كان والدها قد أخبرها، ببرود تاجر لا امرأة عنده أغلى من سلعة، أن زواجها بات وشيكًا. أخبرها أن "الفتاة التي تكثر أسئلتها تضع نفسها موضع السوء". أرادت أن تصرخ، أن تحطم الزجاج وتطير مع الطيور نحو سماوات كانت يومًا تظنها ممكنة.

لكنها لم تبك، بل حملت خريطة جدها المطوية بدقة بين ثنيات عباءتها السوداء، واتخذت قرارًا. لم تعد فتاة تهاب المصير؛ إنها الليلة الأولى التي تصبح فيها عالمة الفلك المحاربة.

همست إلى نفسها وهي تتطلع إلى النجوم القلقة فوق قرطبة: "ليكن ما يكون... لن يموت علمنا في ظلام سلطة تعمى عن النور".

وأدركت في تلك الليلة أنها ستخوض معركتين: معركة لإنقاذ المخطوطات التي تحمل هوية روحها، ومعركة لإنقاذ حريتها الخاصة، وحتى حريتها كأنثى مكتومة بين جدران قصر ذهبي.

في القصر، كان المنصور يخطط بلؤم وهدوء لا يبدده شيء. كان يمسك بخريطة الأندلس كمن يعبث بحياة ملايين الأنفاس. تتراقص له أفكار القوة في ذهنه كما يرقص اللهيب في ليلة شتوية وقد نكأته رائحة احتراق الكبريت.

شعر بضيق في صدره، لكنه كان ضيق العرش لا ضيق القلب. العرش الذي يُقام على صوت المحارق أفضل من العرش القابل للسقوط في ليلة واحدة لو أزهرت فكرة في قلب المدينة.

ليس في قلبه رحمة، لكنه يعرف معنى الخوف من خسارة كل شيء.

همس: "سر قرطبة... لن يُغلبني أحد في هذه المدينة، مهما تحالفوا وأخفوا أسرارهم".

في أعلى برج من قصور الحي الراقي، وعلى سطح يطل على نهر الوادي الكبير المظلم كوجنة حائرة، اجتمع قطيع غرانيق بيضاء فضية، وهن يصبحن على المدينة في صمت. كانت تلك هي الإشارة الأخيرة ليوم لم ينسه أحد: يوم تساقطت الكتب من رفوفها القديمة إلى نار الشك والجبروت، يوم كان عمر طفلاً وقف يراقب يدًا غريبة تسرق مخطوطة جده وتحرقها في فناء المسجد.

ذاك اليوم رسم لعمر طريق الخوف، لكن الليل المقبل كان سيرسم طريق الشجاعة، ولو انتهى بشظايا الروح ممزوجة بحبر وأشواق إلى زمن لن يعود.

عاد عمر إلى الورشة، وأوقف القنديل مرة ثانية. باتت ظلال الأرفف الجامدة تبدو أقرب إلى أشباح آبائه ممن كانوا يخطون المدن لا الجدران، أنفاسهم تهفهف فوق الرق إلى أن يتحد الحبر باسم الله وكلمة الشمس.

سقطت عيناه على إرث أبيه: قلم قديم، مكسور الرأس، لكنه لا يزال يحتفظ بندبة معركة خاضها ذات يوم في مواجهة لصوص السلطة. وضع القلم تحت الوسادة وهمس:

"يا أبي... الليلة لن أخونك ولن أخون الكلمة، ولو انتهيت رمادًا".

ثم غاص في صمت ثقيل انتظر فيه حلول المصير. حتى تلك اللحظة ما زال القلب خائفًا، والعقل يردد: هل الكلمات أثقل من الدم؟ أم أن كل ثورة كبرى تبدأ من كلمة حين تمتزج بجراح الحقيقة؟

عاد صوت الخدش عند الباب، هذه المرة صوت أرفع وأسرع، وكأن من بالخارج صار أكثر يأسًا أو أكثر خوفًا. أيعقل أن الخطر بات يطوقه هكذا بسرعة؟

انحبست أنفاسه، وتوزعت روحه بين السقف المتهالك ومحتويات الطاولة الحزينة ورائحة الخشب والعتمة وزغاريد الريح عبر شبابيك الورشة، مجمل العمر... كل ما يملكه... غد شرس مجهول.

كان ذلك هو الفجر الكاذب، حيث يطول الليل حتى يوشك القلب أن يعترف بالهزيمة، لكنه إن صمد لحظات، تشرق حكاية أخرى.

عرف عمر أن عليه أن يواجه، وعليه -أيا كان ثمن الليلة القادمة- أن يكون جديرًا بوراثة "سر قرطبة"... ذلك السر الذي كان يبحث عنه كثيرون، وظن هو يومًا أنه مجرد أسطورة، قبل أن يصير روحه نفسها.

وهكذا انتهت تلك الليلة، وهو يراقب ضوء القنديل يترنح متصاغرًا كقلبه، يحرس الورشة وكل ما تمثله... ومع آخر اختلاج اللهب، أطبق الليل جناحيه جاعلاً عمر بين الشك واليقين والخوف والأمل، بداية رحلة لا تشبه أية رحلة مضت، حيث تكون الكلمة أثقل من السيف وأشد وحشة من كل الأسرار.

الفصل الثاني

همس في الظلام

الصمت الذي خيّم بعد طرق الشيفرة أشبه بصندوق مغلق على ارتجافة قلب. كان عمر يحبس أنفاسه وراء الباب، يحاول أن يسمع ما وراءه، فالصوت الآن ليس سوى ثقل يتراكم في هواء الورشة، يندمج مع رائحة الحبر ولزوجة الرطوبة وخوف الأسلاف المتحدرين من أعناق الكتبة والنساخ عبر القرون.

مد يده المرتعشة وأدار المزلاج بتؤدة. في الشق الرفيع بين الداخل والخارج، رأى انعكاس وجهه المذعور على صفحة الباب النحاسية. للحظة ظن أنه يرى وجه أبيه يعود متعبًا من ظلال الأزمنة التي تبدلت. ما بين الخوف والشوق، جاءه صوت الرجل الغريب يهمس للمرة الثانية: "حارس الأرواح... افتح".

لم يكن بإمكان عمر أن يخطو خطوة واحدة إلى الوراء. جذبه -بالعِشرة، بالحرفة، بحفر الخوف في لحم القلب- الاسم السري الذي يعرفه قلة قليلة، والذي أورثه أبوه كما يورث الخباز سر عجينته أو الصائغ سر النار والذهب. وسّع الباب حتى انبسط في العتمة ظل رجل أطول وأكثر قسوة مما تخيل. دخل بخطى حذرة وحس فريسة مصيدة.

داخل الورشة، أغلق عمر الباب بحذر كمن يختم زجاجة السم أو يوأد سؤالاً في نهاية العتاب. ظل الرجل دون صوت لحظة، يتشمم الهواء المشبع بأسئلة الحبر، وكأن في كل زاوية سيرة، وفي كل رف كتاب شاهد أعظم من كل الشهود المستأجرين عند المنصور.

ثم اقترب خطوة:

– هل نحن وحدنا؟

لم يكن سؤالاً، كان تقريرًا، كأنه يعرف مسبقًا أن وحده لا يكفي، وأن الحائط نفسه قد يخونه حتى لو ربض قرونًا في خدمة الوراقين.

رد عمر بصوت خفيض:

– من أنت؟ من أرسل إليك بكلمة السر؟

جلس الرجل دون دعوة، رفع قبعته فأطلت هامات الشعر الرمادي المتشابك بشمس الغروب. وجهه قطعة من أثر الأيام: تجاويف قسوة، ندبة خفيفة قرب الحاجب الأيمن، شفتان مطبقتان بإصرار العارفين، وعينان تغوص فيهما السرية كما يغوص المرء في مياه بئر لم يصل أحد إلى قاعها قط.

قال:

– اسمي يوسف. وربما كنت بالأمس غيره. جئتك لأنك آخر الخيط الذي لم ينقطع. جئت لأن هناك ذكرى وأملاً وما يشبه الحلم الذي يرفض أن يموت... وأردت أن أعرف: هل تقدر أن تحمل محبرتك إلى أقاصي الليل إذا أظلمت المدينة كلها؟

سكت عمر، وألقى نظره المرتبك إلى زاوية الورشة حيث الحروف الناقصة في مخطوطة الكندي، حيث يرقص الشك على سيف الرقابة.

– هل أنت من "الديوان"... من الذين...؟

هز الرجل رأسه مبتسمًا بلا فرح:

– بل من الذين نسوا أنفسهم بحثًا عن نجاتك ونجاة غيرك. من الذين عرفوا أن عدو الحرف ليس الجندي وحده، بل الخوف الذي يصنعه الحاكم والشعب معًا حين يتغذيان وجبة الصمت. قلت لك: سمّنا كما شئت... لكن الحبر حين ينضب، لا يبقى للناس إلا سواد الجهل.

دقائق مرت، وكل شيء في الورشة كان يشارك في الترقب، أرفف جامدة، أقلام تئن في الخوابي، ورائحة الخوف الطازجة.

انتهت الرحلة حين مد يوسف يده، فجذب من عباءته لفافة رق ملفوفة بإتقان، سلّمها إلى عمر كمن يسلم قاصة دم لعلاج لا شفاء منه إلا بالتضحية.

– هناك... في قصر الخلافة، في ظلال الرجال الذين يظنون الشمس حكرًا باسمهم، هناك أرشيف سري، أرشيف لا يعرفه إلا الكبار من حرس المنصور. فيه مخطوطات إذا ضاعت، ضاعت معها ذاكرة قرطبة. لدينا خريطة قديمة ومفتاح نادر. عملك، يا حارس الأرواح، أن تدخل وتنسخ ما يمكن نسخه قبل أن تحرق يد السلطان جذورنا كلها.

شعر عمر أن رأسه يدور، وأن الطاولة من تحته تهتز من رهبة الفكرة:

– كيف... كيف لجندي سري أن يدخل القصر؟

ابتسم يوسف ابتسامة من صخر قُطع من أعوام طويلة من الخسارة والمكابدات، وقال:

– لا نطلب منك أن تحارب بالسيف، لكن قلمك سيواجه مملكة القسوة كلها. نحن... "ديوان الحكمة". ولنا عيون وألسنة في كل ركن، وبيننا من يعمل في المطبخ والسوق والمسجد، بل وحتى من يعمل في جناح المنصور.

صمت آخر، وتراكمت في الغرفة ظلال لم تدع للحروف منفذًا. يوسف انحنى فجأة، كأن ظهره يحمل المدينة كلها، وهمس:

– كنت مثلك يومًا، أكتب للشعراء والطامحين... حتى رأيت النار تأكل رأس ابن رشد، وتحرق شعر ابن باجة في ساحات الصمت. رأيتها تلتهم المستقبل. وحين أُمرنا أن نقطع يد كل من كتب دون إذن السلطان، عرفت أن الوقت قد أزف... إما أن أدافع عن الضوء أو أن أعيش اندثارًا بطيئًا.

شعر عمر بغصة تشبه نصل سكين في أعماقه، كأن كل كلمة يوسف تحيي فيه ماضيًا كان يظنه ميتًا: ماضي الأب المراقب في ظلال الأسواق، ماضي الصبي الذي كان يتتبع خطى العلماء فوق سطح الجامع الكبير، وماضي الأم التي أوصته ذات شتاء بألا يتخلى عن اسمه مهما دار الزمان.

– ليس بيننا خيار إلا الحق يا بني. وسأريك...

أخـرج مـن جيبـه مفتـاحين؛ أحـدهما صـغير أسـود ولامـع كالصاعقة، والآخر منقوش بعلامة قديمة تشبه شجرة ياسمين من زمن الفتح الأول.

– هذا سيدخلك من "باب الذكرى الخامسة"، الممر السري في قصر الخلافة، الذي جرى بناؤه بيد الفلكيين الأوائل... فكل القصور في النهاية مجرد أصداء لغواية النسيان.

***

فلاش باك: رماد الفلسفة

وقف يوسف يومًا منذ أعوام، كان شابًا يافعًا، مندفعًا في حب الكتاب، ابن عائلة تسكن السريان وتؤرخ لنفسها في الهامش. وقف خلف سيده المنصور، يوم أمر بإحراق مكتبة شيخ الفلاسفة، مرددًا جملته الباردة: "الوحدة لا تنبت من الشك.. الوحدة لا تعرف إلا اليقين". أُطلقت شعلة على أكوام المخطوطات، كأن نارًا من جهنم فتحت فمها على أسرار السنين.

في لحظة التحول تلك، رأى يوسف بين لهيب الورق ودموع الشيخ أن الحبر يحترق أشد من اللحم، وأن الذكرى ستتهاوى إذا لم يقف أحد لها بالمرصاد.

***

عاد إلى الحاضر، نظر إلى عمر بعينين مثقلتين بالفقد والحنين والوعود المنقوضة:

– لا أطلب معجزة منك. فقط قلمًا صادقًا، وقلبًا لا يخاف. سيحوّلك هذا العمل إلى عدو كل سلطة، إلى شبح يجب أن يُطارد ويُحاصر ويُسحق. لكنك ستصبح في أعين قلة لا تزال تتنفس... رمز ضوء في مدينة تحت الرماد.

وقف فجأة، وبطريقته الخاطفة أودع في يد عمر الخريطة، ثم ضغط على كتفه:

– منتصف الليل، عندما يذوب آخر ضوء في أزقة الحي، انطلق نحو الجدار الخلفي. لا تحمل إلا ما تملك أن تدفع ثمنه. الباب الذي فيه زهرة ياسمين وشق في الحجر؛ هناك يُدخل المفتاح، وهناك تبدأ الرحلة. إذا فشلت، لا يمهلك أحد. وإن نجحت، ستكتب أسطورتك بنفسك.

استدار يوسف نحو الباب في هدوء الغادرين، وقال قبل أن يختفي في لفحة البرد:

– تذكر، يا عمر. في زمن كهذا، نسخ كلمة لم يعد حرفة أو رزقًا، صار صلاة سرية... فلا تتوقف عن الصلاة إن أردت أن يعتق الله المدينة كلها.

***

بقي عمر وحده، في ورشة لم يكن يعرف أنها هشة قبل لحظات. صار الليل خارج الباب ثقيلاً كغبار المقابر. وضع الخريطة بجانب قلبه وأحس للوهلة الأولى أنه يحمل مشعل الزمان.

كل الأشياء من حوله بدت مثل إيحاء قديم: أدوات النسخ، زهرة الياسمين اليابسة تحت درج المكتب، كتاب أبيه المفتوح في صفحة "الرجاء"... كل شيء يهمس: "آن أوان الصدق والصبر".

أطفأ القنديل، لكنه لم يستطع النوم هذه الليلة. بين الظلمة والملاءة الشاحبة، ظل يسمع في رأسه وقع أحذية العسس في الزقاق، وبرودة المعدن في عنقه. نامت عيناه، وسهر قلبه يراجع دروس الخوف ودروس الإقدام، وظلال أبيه تجثو قرب الفراش كأنها تسأله: "هل تقدر؟ يا ابن الحبر والشغف، تراك جديرًا بأن تكون حارس الأرواح؟"

***

وفي مكان بعيد من القصر الفسيح، في غرفة معتمة لا تعرف الشمس، كان جعفر الصقلبي يراقب الخرائط والرسائل المتبادلة بين الوشاة والجواسيس. بنظرة ذئب أليف يحرس سيده بدافع لم يعد يملك تفسيره، كان يتأمل تغير المدينة بخارطة المصالح والرعب.

مونولوج داخلي:

"هذه المدينة تعرف وجوهنا جميعًا، حتى لو أنكرناها ذات صباح. أنا الإمعة في يد المنصور، والوحيد الذي رأى دمعه حين فقد أولاده في طفولته. شر ساكن في الداخل، خير مقهور تحت جلد اليدين. كلنا نخون، حتى ونحن نحمل صولجان الطاعة. هل أستطيع

أنا... أن أغدر لأخلص نفسي فقط؟ أم أن هناك خلاصًا أكبر من نزوات الانتقام؟"

***

وفي لمح البصر، قطع الصمت صوت خطوات ثقيلة وقوية تقترب من باب الورشة عند منتصف الليل. كانت الأرض تهتز خافتة تحت وطأة حذاء عسكري محشو بالقسوة والانضباط. التقط عمر أنفاسه، أطفأ القنديل بسرعة، وقذف بنفسه خلف رفوف الكتب الكبيرة، مختبئًا بين الظلال.

ثم دوّى صوت طرق عنيف، خمس دقات، يفصل بينها ثوان.

عرف عمر فورًا أن هذه الإشارة ليست للوراقين، بل لجيش المنصور. عصر كتفيه إلى صدره، أمسك قطعة الخريطة في قبضته، وتوسل لرب السماء: "نجني من هذا الليل دون ذل... أو اجعل من موتي قصة تُقال عن شرف الحرف في زمن الجبناء".

***

مرت لحظات كمديدة الأبد، ثم أخذت الخطوات في الخارج تبتعد رويدًا رويدًا... كأن الحظ أمهله دقائق أخرى. وحين غاب الصوت، عاد عمر يحاول التقاط أنفاسه. زمجرة المدينة خارج النافذة امتزجت بهزال بارد في أطرافه، لكنه عرف أن زمن الكسل والغفوة قد ولّى، وأن ما ينتظره في الغد أعظم من كل سهر عتيق مر به من قبل.

***

فلاش باك أخير (بنبرة حلم):

يـرى في منامـه أبـاه يجـلس تحـت قناديـل الورشـة، يبتسـم له ويقول: "يدخل الظلام، ليس ليهزمنا، بل لنعرف قيمة النور.

يا عمر... اكتب إذن، ولا تخف من النار... فبعض النار تصنع ذهبًا، وبعضها لا يترك إلا الرماد".

***

أشرقت الشمس في اليوم التالي، لا تحمل وهج الحياة بل دكنة خيبة وخوف دفين. يغادر الحي للنهار وكأنه يذهب ليصطاد الموت بأصـابعه. وعمـر في نفسـه قـرر أن تكـون الليـلة القادمـة بدايـة الأسطورة... أو آخر أوراقه. ظل يراقب السقف المتهالك، يستمع إلى نبضات قلبه المتسارعة، ويراجع ترتيب أدواته وأوراقه.

لا لهو اليوم، لا أمل في الأمان. الليلة موعد الصدام الأول، موعد الدخول إلى "باب الذكرى الخامسة"، حيث يبدأ ليله الأكبر، بدءُ رحلةٍ يذوب فيها القلم في مداد الشهادة والصلاة.

الفصل الثالث

باب الذكرى الخامسة

ساعات من الترقب، والدقائق تثقل كأنها حجارة ترتطم في بئر. تلك الليلة التي بدت أبدية في عمرها، عاشها عمر بين أطياف خوف يتسلل تحت الجلد، وهمسات أمل معلقة على وتر مقطوع. لا قمر في السماء إلا شظية شاحبة تتوارى خلف السحاب، أما قرطبة فقد صارت مدينتين: مدينة النيام الذين يختبئون من مصائرهم، ومدينة الساهرين الشجعان أو المذعورين من ضوء الحقيقة.

غادر عمر ورشته حين بدأ القلب يضيق باحتمال المكوث. لم يكن ذلك هروبًا، بل اقتحامًا لمصير استعد لقبوله ولو قاده إلى هوة جوفاء بلا قاع. حمل الخريطة التي أوصاه بها يوسف دفينة قرب الصدر، والمفتاح معلقًا بخيط أبلاه العرق والقلق. في عتمة الزقاق، خيّم الصمت المريب حتى خيّل إليه أن المدينة نفسها توقفت لترقب خطاه. نفض عن نفسه وساوسه، وألقى نظرة أخيرة على باب الورشة العتيق: "لو عدت... فلن أكون أنا. وإن لم أعد... فليشهد الله أنني حاولت".

مر بحوانيت مغلقة، رائحة الرماد والجلود المحرقة تندس بين الألواح. على مرمى حجر، صدى أقدام أحد رجال الحي ينتهي فجأة في عتمة درب، ثم لا يعلو غير موسيقى سعال عجوز لم ينتبه أحد لوداعه الليلي. حجر فوق حجر، ظل فوق ظل، وقلب فوق قلق. وعندما اقترب من سور القصر الكبير، شعر أن كل شعرة في جسده تستعد لتوديع صاحبها وحياتها.

***

القصر من الخارج عالم فريد: ترتفع جدرانه كأضلع وحش أسطوري، تلمع فوقها آثار المشاعل البعيدة كخيوط نار خافتة تنساب بين برك من الظل. الريح تحمل إليها رائحة زيت الجند وعبق الورود التي يزرعها الساقون لإضفاء وهم الجمال على أصل القهر. في تلك الهدنة بين النهار والليل، بين الحارس والرقيب، بدت الأرض ملعبًا لجريمة لا يشهدها أحد.

أدخل يده في جيبه ببراعة النساخ المدعومة بمناعة الخائفين، أخرج الخريطة وراح يقرأها كما يقرأ تعويذة من زمن العجائب. رسم يوسف على الرق علامات، خطوط ضوء تقود إلى لوحة من الجدار عليها زهرة ياسمين خماسية البتلات تكاد حوافها تذوب في التجاعيد والزمن. هناك... قلب الأثر السري، وهناك باب "الذكرى الخامسة".

وضع المفتاح الأسود عند الشق الدقيق. ارتجف الإصبع قبل أن يدور المفتاح في قلب الحجر. بدا كأن الزهرة المقعرة تئن وتدعو شبح ماضيها للعودة. في ومضة صامتة، انزلق جزء من الجدار إلى الداخل، تاركًا وراءه فجوة يبتلعها الظلام، وكأن الهواء توارى عن التنفس.

أضاء عمر قنديلاً صغيرًا اختبأ تحت عباءته، فارتسمت على الجدران أشباح أعمار منتهية: رسوم باهتة بالحجر لحكماء يرتشفون أسرار الكتب، رموز فلكية ونقوش آيات وآثار أبيات شعرية لكبار

العارفين، كل حرف فيها يذكّره بأن الحضارة لا تموت بضربة سيف بل بخيانة الذاكرة.

***

خطا خطوة أولى، ثم ثانية. كان الممر ضيقًا، كأن الزمن نفسه ضغط أسواره كي لا يسمح للضعفاء بعبوره. جدرانه العتيقة تعكس ضوء القنديل حتى بدا وجه عمر شاحبًا كوجه رسول جاء من زمن آخر يحمل بشرى أو نذيرًا. مع كل خطوة يتقدم، يتسلل إليه صوت أبيه من أعماق الذاكرة. في الوقت نفسه، يتذكر تلك الليالي الطويلة التي قضاها يراقب شغف أبيه بالكتب، وكيف كان الوالد يحكي له أن المدن تسقط حين تضيع مكتباتها، وأن كل جيش يبدأ بتجريد العقول قبل أن يهبط إلى الشوارع.

***

فلاش باك: نار الورشة القديمة

قبل أعوام، كان طفلاً لا يعرف الخوف. تسلل إلى ورشة أبيه ليلاً، فوجد رجلاً غريبًا يناقشه في مصير مخطوطة نادرة. ارتفع صوت الأب: "لن أبيعها! لن أزوّرها ولن أغيّر معنى كلمة باسم السلطان أبدًا!"

وسمع صوت الغريب وهو يزمجر: "إذن مصيركم أن تصبحوا رمادًا مع كتبكم".

صباح اليوم التالي، رأى عمر رماد الورشة يملأ الحي، ووالده واقفًا ككتلة ظل لم يتبق منه غير دمعة تتأرجح على حافة الهزيمة.

***

في الممر العميق، التمس عمر ثبات القلب بما أمكن. سار حتى التقى بالجدار الثاني، فوقه نقش شجرة زيتون وضعت تحته عبارة بالكوفية: "من يحفظ السر يحيي الأمة". تمتم بصوت مرتجف: "المعرفة نور لا ينطفئ".

ودفع أخيرًا باب غرفة الأرشيف السري.

***

في الداخل، كان عالم آخر يولد كلما انكسر الظلام عن رف جديد. رفوف شاهقة تصلح لسجايا الآلهة، كل واحدة منها حاملة حكاية أمة ونهاية فكرة وميلاد جرح جديد. المخطوطات ترتاح جنبًا إلى جنب... ورق مجلد يتلامس مع جلد أملس مهترئ، بينهما عبق بخور قديم ورائحة زيت نقية تسكن قلب العتمة. ترك عمر أصابعه تتلمس الرفوف كما يفعل العشاق عند الكعبة. فتح كتابًا أولاً... ثم آخر... ويسمع صوت أبيه يهمس: "لن يخونك القلم يا بني إذا لم تخنه الروح".

دمعت عيناه وهو يقرأ صفحة ابن رشد حول الحرية، ولفافة الكندي التي كانت تشتكي من قسوة الرقابة، وكتابًا عجيبًا بأقفال

هندسية صاغها مهندس خزائن القصر، واللوح الأخير يحمل أسماء ناسخين تذوب أسماؤهم بين علامتي البداية والنهاية.

***

تردد عمر: عليه أن يختار الآن بين أهم المخطوطات؛ أي عقل يمكنه ترجيح علم الفلك على الفلسفة أو قانون الطب على أسرار الشعر؟ أي ذاكرة كفيلة بحمل هذا العبء الشرقي كله؟

بدأ ينسخ...

يداه ترتجفان، لكنه يعيد جمله الأولى كما لقنه والده: "كل كلمة تُكتب هي صلاة. كل حرف يُهمل موت خفي. في الزمن الذي تُحرق فيه الكتب، تصبح النسخ خلاصًا للماضي والمستقبل معًا".

نسي الزمن، لم يعد يدرِ كم مضى. عليه في الحجرة: ربما ساعة... ربما ليلة كاملة. كل جملة منقوشة في دفتره سر صغير يضيء ركن غرفة في مدينة مهددة بالنسيان.

***

فجأة سمع في البعيد صوت حركة. خشخشة مفاتيح، وطقطقة أحذية فوق البلاط الطيني في أحد الممرات العليا. دوي خطوات، وكل ثانية تمر تنقص من فرصته في البقاء على قيد النور.

خطف ثلاث مخطوطات أساسية وربطها جيدًا إلى صدره، ثم أطفأ القنديل وأخذ يتلمس الطريق في الظلام الدامس.

مد يده يبحث عن باب جانبي في الجدار، حيث خطط يوسف لممر ثان يقل رواده عن المخرج الأول.

لكن في العتمة، اصطدم بعطر لم يعرف له تفسيرًا أول وهلة. رائحة مسك وعنبر بثياب مزخرفة بنقوش نسائية... ومن الظل خرج صوت خائف:

– من هناك؟

جمد الدم في عروقه.

انجلى الضوء أكثر، فإذا به يرى فتاة بملابس داكنة، عباءتها مطرزة بعلامات فلكية، عيناها تلمعان كنجمتين في ليل قرطبة الأرجواني.

وبين الحيرة والرجاء، همست الفتاة:

– أنا... زينب بنت أبي إسحاق.

شهق عمر وهمس دون أن يشعر:

– أنت... من تبحثين عن النجوم؟

لم يكن في الأمر وقت للتعريف ولا ثرثرة الدهشة. التقاءهما أشبه بلقاء حلمين ضائعين في مهب الريح. الدنيا كلها غابت في تلك اللحظة، إلا خوفهما المشترك والمخطوطات المحصورة بين يديهما.

حينها هناك... على مرتفعات الممر الجانبي، ارتج المشى بغتة تحت وطأة مشاعل حملها ثلاثة حراس، يصرخون بالأندلسية الثقيلة:

– من هناك؟! قف وإلا نزفنا دمك في الدهاليز!

أمسك عمر بيد زينب، وهي نفسها لا تدري هل تمتد له نجاة أم أنه ينبض سرها بيده الآن. ركضا يعبران الردهة، والمخطوطات تحترق صمتًا بين جوانحهما. في مفترق النفق، صرخت زينب:

– هذا المعبر مسدود!

لكن عمر لمح رسمًا صغيرًا على الجدار: رموز بروج فلكية. تمتم:

– جدك كان فلكيًا؟

أشارت إليه بخوف وأمل:

– دربني على هذا منذ الصغر.

أدخل عمر المفتاح الثاني، فانفتحت في الجدار نافذة صغيرة، اندسا داخلها ووجدا نفسيهما فجأة في غرفة محكمة الإغلاق تعج بروائح قديمة ورطوبة كأنها دهاليز أفعى مخضرمة.

***

فلاش باك: مفتاح النجوم (زينب)

تذكرت زينب –في ومضة خوف– يد جدها حين وضع الخريطة بين كفيها وهما فوق سطح القصر ليلة صافية:

– "كل نجم يا زينب له سر. وكل سر يحمل مفتاح نجاة لليوم الذي يأتي فيه الليل إلى المدينة. إذا فقدنا الحرية، دافعي عنها بالعلم. وإذا رمى السلطان كتبنا في البحر، خبئيها عند النجوم أو في حبر قلبك".

ارتجف كل شيء: الباب، الهواء، حتى قلبيهما. سمعا من بعيد صراخ الجنود وهم يركضون في الدهليز. لم تكن أمامهما إلا لحظات ينكشف فيهما سر الأجيال أو يفنى بين ليل الخوف. نظرة واحدة في عيني زينب جعلت عمر يفهم أنه ليس وحده في تلك المعركة، وأن ثمة من يختار العلم مهما كان الثمن.

***

حدث ما لم يتوقعه أحد. سمِعا طرقًا خافتًا عند باب خلفي للغرفة. ظل عمر يتابع الصوت حتى لمح حجرًا قابلاً للدوران. دفعه، فتدحرج الباب بصمت كأن ألف روح دفعته من وراء الزمن. أما زينب، فجذبت مخطوطتين مهمتين إلى صدرها، وهرع الاثنان إلى الخارج.

أخيرًا، بعد لحظات من الركض المحموم، وجدا نفسيهما خارج حدود القصر، فوق المجرى المظلم للوادي الكبير. كان النهر كالمرآة في الليل، يحمل كل ذنوب المدينة وخوفها وضياعها... وهما هناك، على ضفته، يتنهّدان كأنهما حملا مدينتهما على أكتافهما الصغيرة.

استدار عمر إلى زينب، وقبل أن ينطق، انزلقت من بين يديه مخطوطة واحدة سقطت في النهر، فاستحال مسطرها حبرًا أسود على صفحة الماء، ثم صارت ذكرى أخرى مبللة بحزن لم تعرف المدينة مثله من قبل.

جلسا لحظات بلا كلام. حولهما المدينة الثقيلة بأنفاس الزمن، وفوقهما سماء بها نجمة شاردة تشق الظلمات. قال عمر، وصوته مزيج من بكاء وأمل وشكر:

– الليلة... وُلدتُ من جديد.

أجابته زينب بنبرة لا تخلو من رجاء:

– العلم لا يموت إذا بقي بين اثنين... أو حتى بين قلبين.

في تلك اللحظة، كانا يعرفان أن رحلتهما قد بدأت لتوّها. مسير طويل بين الحرائق والمكتبات، الهرب والمواجهة، سيقودهما إلى حيث ينتهي سر قرطبة، أو يبدأ نسيانها العظيم...

وراءهما، في دهاليز القصر، مشى جعفر الصقلبي ذات الخطى الباردة، يطارد الأثر ويشمّ في الهواء رائحة ثورة لم تبدأ لكنها لن تتوقف. رجلٌ كان يعرف معنى الخيانة، ويعرف أن المغامرة العظيمة هي التي لا تبحث عن نصر، بل عن معنى أن تضيء وحدك في عصر العتمة.

الفصل الرابع

يد في الظلام

في تلك الساعات التي يشقها زقزقة بعوض الوادي الكبير، ويُحمل فيها هواء الفجر رطوبة ندى محفوفة برماد الخوف، ظل عمر وزينب جالسين على ضفة النهر، مطوَّقين بهواجس مَن فرّ من نار ليجد نفسه على لهيب جديد. خلفهما، أسوار قصر المنصور تعلو كجسد تنين جريح، تزداد شراسته كلما نزف منه سر أو هربت منه ذكرى.

لم يعد بإمكانهما العودة إلى الوراء. المدينة مقسومة في القلب، وبين الضياء والظلال تتقلص الاحتمالات حتى تصير الطرق ثلاثة فقط: المطاردة، الاختباء، أو الهجوم. غيم رمادي يحجب القمر الأخير، وتسيل في الأفق أصوات الديكة الحذرة، تسبق وقع سنابك خيل حراس القصر الآتين من بعيد.

كانت زينب تحتضن المخطوطتين بأصابع ملتهبة، تلتفت إلى عمر بنظرة يشتبك فيها الفزع بالإصرار، وعينها كمرآة تشهد صراع الأمل الأخير في صدرها. أما عمر، فكان يمسح على طرف عباءته ندى الصبح، فيما يده الأخرى لا تزال تضم الرق المصون بقوة المتدينين حين يلامسون وردهم الليلي في مواجهة الشيطان.

في تلك اللحظات تولَّدت بينهما، دون كلام، رابطة خفية أشد تماسكًا من الصداقة وأغرب من تعارف ليلة واحدة: رابطة أن تتحول الهشاشة إلى شجاعة، وأن تصبح المخاطرة رابطة نجاة.

مونولوج عمر الداخلي:

"هل هكذا يولد القدر، من صدفة مطاردة في الظلام؟ أَبِالله أم بضربة يد البشر يُحكم مصير المدن والمحابر؟ ليتها كانت ليلة واحدة فقط... الآن علمتُ أن الحكاية الكبرى تبدأ حين تجد قلبًا آخر يحمي سرّك، أو يشارك سقوطك".

اختلطت دقات السماء بالفجر حين بزغ شحوب الشروق بين الأشجار البعيدة. زحف الضياء بصعوبة على صفحة النهر، كأن النهر ذاته لا يريد أن يشهد الفضيحة: أن بعض الكتب لن يصل إلى شمس الصباح.

عمر، بحركة غريزية، سحب زينب من يدها -أصابعها باردة، لكنها ثابتة كأزميل النحات- وانطلقا بحذر بين أشجار الصفصاف المتداعية على حافة النهر، حتى بلغا تخوم سوق الوراقين الخالي في تلك الساعة. خلف أكشاك الكتب، اختبآ كطفلين هاربين، لكنهما كانا يحملان عبء أمة كاملة.

هناك، بين أقفاص الكتب المهملة، انعكس ضوء سابق لأوانه عن وجه رجل مسن جالس أمام نار صغيرة ينفخ فيها رماد الحطب. رفع رأسه، فالتقت عيناه بعمر. كان وجهه مألوفًا: صبغة المسنين الموشومة بتقشف المعرفة، وغلالة رقيقة من الحزن على الجبين.

قاربه عمر بخطوات مترددة، حفظ الشاب كيف تكون لغة التآمر مكتومة، يتساءل في صمت: هل بلغنا مكانًا آمنًا... أم في هذا المكان شَرَك آخر بانتظار الملاحقين؟

لكن الرجل ابتسم ابتسامة واهنة، وقال بنبرة عميقة كجذع زيتون ضارب في الأرض:

– "الخائفون يأتون باكرًا دائمًا يا ولدي. لكن ليس كل من يركض في الليل يستحق أن تطارده الشمس".

نظر إليه عمر في دهشة. شرع الرجل يُقلِّب بين مواقده القديمة، ليخرج في النهاية بسجادة صغيرة رهيفة نُسج عليها رمز شمس، ومن فوقها كلمات بالخط الأندلسي:

"في العلم نجاتنا.

وفي السر خلاصنا.

ومن خان القلم فقد خان قلبه".

دُهش عمر... تلك العبارة كان يسمعها من أبيه في الليالي التي يشتد فيها الخوف. اقترب أكثر وسأل بصوت خفيض:

– "أأنت... من أخوتنا؟"

ابتسم الرجل بلطف، ونفض عن ثوبه غبار الليل، وقال:

– "منذ أن كان قلمي رمحًا في يد جندي جاعل، وصارت كلمتي لاحقًا في يد حكيم يُنكر النسيان.

أشعلوا العالم بالنار ليطفئوا فكرة واحدة، ظنوا أننا رماد... ونحن من الرماد نصنع الحبر ثانية".

تقدمت زينب، وقد أرادت أن تواري قلقها بكبرياء نسبها:

– "إن معنا مخطوطتين، لا نعلم هل نجونا أم فقط جرفنا الخطر إلينا. نحتاج المأوى والرفقة".

هز الرجل رأسه بتؤدة:

– "لكما في هذا الدير آخر أمان المدينة.

تدخلا خفية، واتركا للخوف بابه مغلقًا خارج العتبة".

ودلّهما على باب صغير خلف كومة كتب بالية، يقود إلى دهليز مقبب يفضي إلى قاعة واسعة علقت بها أنفاس الرهبان وخطوات أولياء العلم وعصف الخائفين منذ زمن طويل.

في الداخل سار الثلاثة بين صفوف الكتب حتى بلغوا منتصف القاعة. راح الرجل يشعل قنديلاً قديمًا، فعبرت ألسنة الضوء فوق وجوه التماثيل الرخامية لتكشف عن كون مصغّر من نقوش الحكماء والمصلحين، وصدى قصائد ابن حزم يتهجّى في زوايا المكان.

قال الرجل، ومعه رجفة إنسانية ظاهرة:

– "أنا راهب الدير الوحيد منذ أُحرق شيوخي أمامي. في هذا المكان ظل العلم جسرًا بين الظلام واليقين. الجوار هنا ليلة واحدة، ريثما تهدأ الخيول حول المدينة، بعدها لكلٍّ منا دربه، ولكل مخطوط بيت جديد".

استلقى عمر وزينب قرب النار الصغيرة، يقتاتان فتافيت خبز ويشربان جرعة ماء. دوّت في المكان أنات الأثواب المبللة وحشرجة تعويذة قديمة تُقال على لسان شيخ يحفظ سر البخور لا سر الدم.

مونولوج زينب الداخلي:

"هذا دفء لم أعرفه حتى بين حرائر أبي وخدم القصر. العزلة هنا ليست فقرًا بل قوة... وهل كانت النجوم في يوم إلا وحيدة وفوق الجميع؟"

وقبل أن ينقضي الليل، هبّت ريح مفاجئة، سمعت معها زينب وعمر صوت خيول تُعفّر التراب في الخارج. قرقعة، ثم صرخات جنود، فاندفع الشيخ نحو مدخل الدير وأغلق الباب الخشبي الثقيل.

قال الرجل بصوت فيه رنة ألم:

– "كلما حسبنا أننا أنقذنا فكرة، جاء السلطان ليدفنها في لحد جديد".

جلست زينب تقلّب صفحات مخطوطتها في ضوء الشمعة، تقرأ سطورًا كانت يومًا طقس النشأة العلمائية للعائلة. أما عمر فقد أخرج رقًا وراح يكتب شهادة الوقت، سردًا لما جرى... كأنه بكتابة كل حرف يرثي شهداء الحاضر ويصنع ذاكرة للمستقبل.

***

فلاش باك: ذكريات راهب الدير

تتداعى لراهب الدير الذكريات، حين كان شابًا ذا شعر أسود وعينين تشعان فضولاً. كيف دخل إلى هذه المهنة من باب الخطأ، وكيف علّمه أستاذه الفقيد أن العلم ليس ملكًا للمسلمين أو المسيحيين، بل ميراث لمن أراد أن يسمع لغة الشمس.

يتذكر يوم دهم الجنود الدير، حين ربطوه مع بقية الشيوخ، ورأى بأم عينيه مصحفًا قديمًا وكتاب توراة ولفيفة يشوع بن نون تحترق معًا في نار واحدة... وتعلم أن كلمة الحق لا تخاف اللغة أو الدين، بل الخراب والسكوت.

***

تناهى إلى مسامعهم طرق عنيف على باب الدير من جديد.

يتهامس الجنود الغلاظ:

– "نبحث عن ولد وفتاة سرقا شيئًا من القصر! قيل إنهما في هذا الدير".

تسمرت زينب لحظات، وشعر عمر بأن الدماء قد تجمدت في الشرايين. تحرك راهب الدير بخفة العارفين، سحب بساطًا صغيرًا، فضُرِبت تحته بوابة سرية في الأرضية، وقال:

– "انزلا ولا صوت. تظللا بحكمة الحجر والكتب القديمة".

نزلا بلا تردد إلى سرداب تحت الأرض، جدرانه مرصعة بفسيفساء سريانية وعربية، يضج الحائط بذكرى الليالي التي خبأت فيها المدينة سرها عن مطرقة الطغيان.

في الأعلى، كان الجنود يفتشون القاعة، وروائحهم ممتزجة بخمر الغزو وخوف الفجر.

يتحدث أحدهم بغلظة:

- "كل شيء هنا رطب وعتيق، حتى الهواء يخشى أن يتكلم! فتشوا الرفوف، قد يكونان في قماشة أو داخل مخطوطة!"

للحظات، خُيّل إلى عمر أنه يسمع طنين الدماء في أذنيه أكثر من أي صوت آخر. ألصقت زينب خدها بالحائط البارد، تتلو آية من كتاب النجوم سرًا:

- "يا رب السماوات، يا خالق الأفلاك والأزمان، احفظ القلم من النار".

مرت دقائق كمديدة الأبد قبل أن يعلن أحد الجنود في أعلى القاعة:

- "لا أثر هنا. الكلاب عبرت النهر. الليل طويل، فلنلحق بهم إلى السوق".

انفتحت الأرض عن هواء أقل قسوة. خرج عمر وزينب من السرداب بعيون أكثر شحوبًا، يحملان كتبهما ودروس النار.

***

عند الفجر، أقر الراهب بوجوب الرحيل، لا وقت للسكينة حين تلهث المدينة خلف خيالات المتمردين.

قال لعمر بنبرة أب معلم:

- "احمل قلبك حيث تذهب، وراقب النجوم وليس فقط ظلال البشر. إذا بقيت حارس الأرواح، لن تنقرض قناديل المعرفة في هذا البلد".

انطلقت زينب مع عمر خارج الدير مع انبلاج النور، ودخلا الأزقة الضيقة حيث يختبئ أنفاس الباعة وأقدام العابرين.

سارا حتى وصلا إلى ميدان الحنطة، أرض السوق القديمة، وهناك توقفا تحت قنطرة حجرية، والتقيا شابًا ذا عينين ذكيتين، يرسم بعفوية على وجهه ملامح الصقور الأندلسية. كان واضحًا أنه يراقب، وكان واضحًا أكثر أنه ينتظر.

اقترب الرجل بخطى دقيقة ونبرة حاسمة، وهمس لعمر:

– "يوسف يرسل تحياته... قائد ديوان الحكمة في الانتظار. لديكم رفيق جديد، ومهمة أكبر من كل الكتب: حماية كلمة لن تُمحى ولو احترق العالم".

***

انقسم الصبح بين فرار الأبطال من مطاردة جديدة وولادة أمل يطل برسم مجهول في عيني شريك جديد. تذكر عمر بيتًا قديمًا لأحد فلاسفة قرطبة:

"في الليل يولد الرجال،

وفي ضوء الخوف تصير الشجاعة دينًا لمن لا يحب الموت عبثًا".

***

فلاش باك – طفولة عمر:

يرى عمر في خاطره أباه يُنقّي صفحات الرق، يشعل قنديله ثم يشير إليه بالسكين الصغيرة:

– "اقطع ما شوَّهته الرطوبة، لكن لا تجرح معنى الكلام. الحبر يشبه القلب، إذا سال بلا ضابط صار لعنًا لا نورًا".

***

في تلك الليلة، لم يعرف عمر أين سيبيت غدًا، ولا زينب من ستصير، كل ما كان عليهما هو أن يمشيا إلى الأمام، بحذر ورجاء، وأن يتذكرا أن هناك «يدًا في الظلام» تمتد لكل من رفض أن يصير مجرد ظل في مدينة الظلال.

وفي أحد أبراج القصر الشامخ البعيد، وقف جعفر الصقلبي يتأمل ضوء النهار المنكسر فوق السوق.

كان يعرف أنه يقترب من اللحظة التي ستكون فيها أنامله إما خنجرًا في خاصرة الثورة، أو كفًّا تمتد لإنقاذ حكاية كتبها الأجداد بدمهم... بينما في قلبه سؤال لم يجرؤ على إسكاته:

"من يحكم المدينة حقًا: المنصور أم الحبر؟"

***

بذلك تنتهي ليلة أخرى من زمن لا يرحم في قرطبة، وتنهض في ظلالها قصة لا يشبهها سطر ولا يقدرها سلطان.

الفصل الخامس

خروج الأرواح من الحجر

كـان النهـار في قرطبـة لا يشبـه النهـار في أي مدينـة عرفتهـا الأندلس. هنا، حتى الضوء يمر على استحياء بين الأسوار والدروب، خائفًا أن تلتقطه عين جاسوس أو تسرقه نافذة متربصة. امتزجت رائحة الخبز بنكهة الرماد، وصوت سقاية أزهار البرتقال بموسيقى فحيح الخوف. بدا أن كل شيء، حتى الحجارة، صار يحمل فوقه ذاكـرة نجـاة أو صـدى هزيمـة عاشـتها المدينـة في ليلهـا الطـاعن بالتوجس.

كان عمر وزينب، بمصاحبة الشاب الجديد الذي قدمته لهما شبكة ديوان الحكمة واسمه عبد الرحمن، يسيرون بين الأزقة متوارين عن الأنظار. ظلالهم تذوب في ظلال الحوائط، وأصوات أقدامهم تتسرب كهمسة بين طقطقة عجلات عربات الخضار وارتطام النعال فوق البلاط البارد. الخوف رفيقهم الثالث، والعزم قوتهم الوحيد. حزموا المخطوطات جيدًا في كيس من الجلد، ووزعوا دفاتر النسخ بين ستراتهم ودواخل ثيابهم، لم يعد لديهم بيت، ولا حق العودة إلى الورشة أو القصر.

في هذه الساعات التي تمازج فيها الصحو بالحلم، شعر عمر أن حياته انقسمت إلى عصرين: عصر كان فيه مجرد ناسخ يبحث عن كسرة خبز وسطر جديد، وعصر آخر صار فيه غريبًا خائفًا يركض خلف فكرة يريدون وأدها قبل ولادتها.

وقف عبد الرحمن عند زاوية منسية، وأشار إلى باب حجري صغير في جدار دار قديمة يكسوها الطحلب وأثر الأمطار الجافة:

– "هنا، خلف هذا الباب، نعبر إلى طريقنا. بين الحجارة مكمننا، ومع كل حجر حكاية قديمة لا تحملها إلا الأرواح التي نجت من عيون العسس وضجيج القادة".

أزاح كومة من الأحجار الكبيرة، وسحب حلقة معدنية بدت للعين جزءًا من زخرفة قديمة، لكن الباب انفتح كجفن يتثاءب بعد قرون من السبات. عبق العتق والغبار اختلط برائحة الحبر القديم، هواء يشبه زفير كتب عتيقة حُفظت في بطن الأرض.

***

فلاش باك: عبد الرحمن – الهارب من السقوط

في سنواته الأولى، كان عبد الرحمن طالبًا في المدرسة الكبرى للفقهاء في قرطبة. حفظ المعلقات وقرأ طرائف الفلاسفة، وأقسم على الوفاء للعلم ولو خذله السلطان. لكن عندما اندلعت أول حملة تطهير، رأى بعينيه معلمه يُجرجر من ساحة المدرسة إلى دهاليز السجون، يُجلد ويُتهم بالزندقة. لم يدافع عنه زملاؤه. وحده عبد الرحمن راقب عن بعد، فاكتشف أن الخوف أبرد من الخيانة حين يصبحان طوق نجاة في زمن الظلم.

منذ تلك اللحظة صار يخبئ أوراقه البيضاء وقلمه في جيبه، يكتب على جدران الحمام وفي حجرات الفقراء، يهرب من عصا

المعلمين ومكر الأبواق الرسمية. وجد نفسه أخيرًا في زمرة من كانوا يسمون أنفسهم "ديوان الحكمة"، حيث لا أحد يسأل عن نسبك، فقط عن مدى استعدادك أن تضحي من أجل الحرف.

***

مرت المجموعة عبر الممر الضيق، ووجدوا أنفسهم في قاعة كأنها جزء من مدينة سرية تحت الأرض، جدرانها موزعة بين آثار قرطبية ورحى حجرية عالية تعود إلى عصور الرومان. فوق الأحجار الكلسية، كُتب بالقلم العريض:

"ما ضاع من فوق، يُحفظ تحت.

وإذا انكسرت يد الجهر، كانت يد السر أكمل وأبقى".

هنا، كانت المقاومة تُبنى بصمت وحذر. رجال ونساء، شيوخ وشباب، بعضهم يخط الحروف على الرق، وبعضهم يصنع الحبر، وبعضهم يُخيط عباءات للهاربين... حياة كاملة تحت الأرض، تقودها أصوات لا تعلو فوق همس الكتب وهموم الخلاص.

***

في ركن قصي، وجد عمر نفسه أمام عجوز ضرير يُسمى "الأستاذ محيي"، كان صوته ضعيفًا كخرير ينابيع الجبال، لكنه يحمل جلال الذين عرفوا المنفى قبل أن يعرفوا الوطن. أشار عبد الرحمن إلى عمر:

- "هذا الناسخ الذي حدثتك عنه، هو من نجا الليلة من مخالب العسس وفي يده علمنا... وهذه زينب بنت أبي إسحاق العالم الفلكي".

تقدمت زينب بخطى خافتة كتلميذة في حضرة معلمها الأول، وحيّت العجوز بابتسامة جافة فيها، رغم الظلال، ذلك الكبرياء الأندلسي القحّ:

- "ما زال فينا حبر لم يُحرق، وحلم لم يُصادر، وأمل يُكتب بدمع البنات والبنين يا سيدي".

لمس العجوز كفها المرتجفة، فضغط عليها وقال:

- "كل كتاب ننجو به الليلة، نزرع به فتيل نور للأجيال القادمة. لن تعود قرطبة كما كانت أبدًا، لكننا إذا كتبنا اليوم، ربما يجدنا أبناؤنا غدًا في ناحية أخرى من الحلم".

التفت إلى عمر:

- "اجلس. اروِ ما واجهتكما به الدهاليز والعسس. كل شاردة وواردة أصبحت الآن جزءًا من أرشيفنا الأخير".

***

على ضوء المصابيح الباهتة جلس عمر يروي كل دقيقة: تفاصيل باب الذكرى الخامسة، أنفاق القصر، لقاء زينب، جنون المطاردة في جلابيب الظلال، السقوط عند النهر، خسارة

المخطوطة... كان حديثه يخرج كاعتراف عميق لم يعلنه حتى لنفسه.

في كل كلمة كان يرويها، شعر بثقل الذكرى يختلط برائحة الحبر في صدره. سأل نفسه بصوت لا يُسمع:

"أهذا حقًا أنا؟ هل صرت شيئًا يستحق أن تكتبه ذاكرة مدينة، أم أنني مجرد أشلاء بطل تافه يبحث عن بطولة ليخفي خوفه؟"

***

بينما كان يُحدث العجوز محيي، راحت زينب تراقب النساء الطاعنات في السن وقد شكّلن دائرة حول مصباح زيت صغير، يقرأن أوراقًا ممزقة بنهم العطشى إلى المعرفة. بينهن كانت "سلمى"، سيدة من بيت عريق، كانت في شبابها شاعرة تزيّن أمسيات الفلاسفة قبل أن تنقلب العواصف. الآن تجلس وسط النسوة وتقرأ أبيات أمل:

"يا بيتَنا... يا ظل أمنيتنا الأولى،

غاب الذي نحبه،

لكن بقي فينا ما يكتب الله به قدر النجاة".

ابتسمت سلمى لزينب وقالت:

– "تعلمين يا صغيرتي؟ البساتين حين تُحرق، تبرز من رمادها زهرة ترفض الهلاك. لو متنا الليلة، يكفي أن تحمل واحدة منكن سر النور إلى المكتبة التي لم تولد بعد".

***

تتوالى الساعات، ويزداد توتر الجميع مع ازدياد صخب العسس في الشوارع وارتفاع أصوات الدواب في السوق الأعلى. فجأة دوّى طرق شديد على الباب الحجري الخارجي. تسمر الجميع، وارتجفت الأرواح بين استدعاء النهاية واستبطان النجاة.

اقترب عبد الرحمن بصمت من باب سري صغير في عمق القاعة، دفعه بخفة وأشار إلى المجموعة أن تتهيأ للغوص في دهليز هارب يؤدي إلى الدير المجاور للمدينة.

قبل أن يغادروا، عاد الأستاذ محيي فَتَشَبَّثت يده بعمر:

- "الأرواح التي حملت العلم تسكن الحجر أبدًا. إذا خرجنا اليوم تاركين كتبنا، فكأننا رمينا آباءنا في ظلمات النسيان. عليكما أنت وزينب، إذا متنا، أن تظلا حاملين للسر، لا من أجلنا، بل من أجل أطفال لم يولدوا بعد".

همس في أذنه بيتًا قديمًا لجده العالم المجهول:

"إذا ما رأيتَ النور يغفو

على صدر ذاكرة في حجر،

فاكتب –ولو رماد العالم كله عليك تدثر–

فالكتابة أبد الحلم، والخيانة أبد الفناء".

***

فلاش باك: زينب – ليلة الوداع

عادت بذاكرتها إلى سنوات القصر، حين أوصاها جدها الفلكي بألا تثق بالنجمات اللاتي يُشاهدن ولا يُقتفى أثرهن.

كانتا في بستان الياسمين بين الفجر والناموس، وكان الشيخ قد وضع يدًا على رأسها وهو يُقسم:

– "حتى إن انهار القصر فوقنا، ما دام لك قلب ينبض وعقل يسأل، فقرطبة حية".

***

خلف الحجارة الدهرية تفرقت المجموعة إلى مجموعتين: عبد الرحمن يقود عمر وزينب مع أربع مخطوطات مختارة وحبر وأقلام، وباقي الرجال والشيوخ يحملون أنفسهم وأوراقهم الناقصة.

الدهليز طويل، منقور في باطن الأرض، يخط فيه الماء سيرة العروق القديمة تحت المدينة. كانت ثمة رموز محفورة بخيوط دقيقة على الجدران: نصف قبة نجمية، رمانة مفتوحة، وسيف صغير مضروب على الباب من الداخل. كان كل رمز رسالة من الذين حفروا سفر الخلاص تحت الأرض حين لم يعد للنور مكان فوقها.

في منتصف النفق تفجرت أصوات عالية، رفس وعواء وقصف أقدام ثقيلة تسابق أنفاس الهاربين. جاش قلب عمر، وأمسكت زينب بذراع عبد الرحمن بقوة، فهمس لها بتؤدة:

– "ليس الخوف عيبًا يا ابنة العلماء. الخوف دليل الطريق في الليالي المعتمة".

فجأة، أطفأ عبد الرحمن المصباح، وأشار لهم بالانبطاح قرب جدار منحوت فوقه بيت شعري قديم:

"في الدهر مياه كوالح،
وفي الأشجار أسرار ساحر،
تحت الحجارة يصرخ اللحن،
لا يموت النور مهما انكسر".

مرت قافلة العسس فوق رؤوسهم من فتحة مهواة، أفواههم تلعن العصيان وأقدامهم تطارد شبح الهاربين. بعد دقائق طويلة، عاد الصمت إلى الحجر، ثم أشار عبد الرحمن إلى باب حجري ضيق. هناك تدحرج الباب وخرج الثلاثة إلى هواء فجري أشبه بالنور الأول بعد الطوفان.

***

كان العالم الخارجي قد أفاق على سوق صاخبة وحركة رجال وحشية تبحث عن طريدة. استطاع عبد الرحمن بابتسامة عابرة وحيلة لغوية أن يدفعهم بعيدًا، بينما انفصل الجميع في السوق: كان لقاؤهم التالي بعد أيام عند مجلس الشيخ يوسف في أحد أحياء قرطبة السفلى.

مشوا كمن يعود من دفن أحبته، يشعر عمر أن كل حجر مرّ عليه اكتسب معنى جديدًا: بعض الحجارة يسكنها أسى، وبعضها الأمل، وبعضها لا يحمل إلا سرعة الموت وخيانة الإهمال.

***

حين بدؤوا عبور أحد الجسور الحجرية الصغيرة، انزلقت زينب فجأة وسقطت مخطوطة ثانية من يدها في تيار ماءٍ يسحبها كأن الزمن نفسه قرر أن يمنع العلم من النجاة. انحنى عبد الرحمن يحاول التقاطها، لكن التيار غلّفها بألواح الطين، اضطرب قلب زينب، بلّت على خدها دمعتان، لكن عمر ناداها:

– "النهر يخطف الحبر، لكن الفكرة لا تغرق".

مسحت دموعها ونهضت، دون أن تقول كلمة، هذه اللحظة علّمتها أن المقاومة ليست انتصارًا كاملاً، بل وقوفًا شجاعًا على حافة الخسارة مع كل نفس.

***

وصلوا أخيرًا إلى زقاق ضيق، فقابلهم شيخ مسن جليل في هيئة فقيه، كان يحمل تحت عباءته أقلامًا حبرية أشبه بالخناجر. أشار لهم بالدخول إلى دار صغيرة محصنة خلف باب ثقيل.

في الداخل، كانت الجدران ملأى بآثار معارك الماضي: لوحات شرف فارغة، صور لعلماء قُتلوا قبل أعوام، صفحات معلقة تحمل دعاء النجاة وأسماء من رحلوا "شهداء الكلمة".

هنا عرف عمر وزينب وعبد الرحمن أنهم بين أيدي "ديوان الحكمة" حقًا.

***

قال الشيخ وهو ينظر إليهم واحدًا واحدًا:

– "كل ليلة تُطارد فيها الكتب، كل باب تُطرق فيه الحجرات السفلية، كل دمعة تسقط على حبر مختلط بعرق الخوف... هذه الروايات جميعًا ستُكتب حتى لو لم تبق صفحة أو وطن أو اسم. فالكلمة، وحدها، سور المدينة الأخير".

جلسوا يستمعون إليه، وكل منهم يحلم في سرّه: زينب بنجمة تلمع في ليل الدهر، عبد الرحمن بدرب خفي لا يعرفه فيه أحد، وعمر... بقلب لم يهدأ ولم يهدأ، يعرف الآن أن مكانته لم تعد ورشة صغيرة على مشارف السوق، بل جبهة مفتوحة بين حجر وطين، بين موت وحياة، بين خروج الأرواح من الحجر ونهوض المدن من الرماد.

في آخر الليل، جاءت رياح شمالية باردة، وفيها صرير أبواب قديمة وصوت امرأة تصوغ بيت شعر لا يسمعه سوى زوار الحقيقة في ليالي الخوف، بينما في زاوية القاعة

سقط شعاع قنديل على نص قديم كتبه أول حارس في هذه المدينة:

"يا من تمسك بالحبر،

سر بنا ولو هلكت الأنجم،
فلنا في صدور الحجر
ضحكة طفلٍ، وزفرة أم، وسطور أمل لا تموت".

***

هكذا وُلِد فجر جديد، ولم يعرف أحد بعد، أن هذه الليلة لم تكن إلا أول الطريق نحو ذروة ستغير مصير قرطبة كلها، أو تودي بمحبي الكتب إلى أبد لا بقاء فيه إلا للأرواح التي خرجت، ذات مساء مضطرب، من جوف الحجر.

الفصل السادس

حبر في ماء

ما بين انسياب النهار فوق جراح الليل المنصرف، وارتجاف الأرواح المكلومة على ضفة النهر، خرجت الشمس كمن يدس نفسه بين حطام مدينة تأنف الأمل، وفي القلب ظل حبرٌ جاف فوق جرح العجز، حبرٌ سال في ماء ولم يستطع أحد إعادته إلى الورق أبدًا.

في قاعة "ديوان الحكمة" السفلية، كانت ملامح عمر شاحبة كأن رياح الشمال عبرته من عظم إلى عظم. كان يقلب كفيه متحسسًا آثار حبر التصق بالجلد، حبرٌ أنقذ نصف مخطوطة وغرق النصف الآخر في النهر. إلى جواره جلست زينب، شاردة فوق مساحة من الفراغ، تحدق في نقطة لا يراها سواه: ذلك المكان الذي ذهب إليه مجد عائلتها مرتين، مرة حين أُحرق بيتهم، ومرة حين جرف مزاج النهر أسرار الليلة الفائتة.

أما عبد الرحمن، فجلس ناحية الباب، يعيد ضبط صفوف الكتب المهربة، كمن ينتظر الخيانة من ظل خلفه أكثر مما ينتظر العون من أصدقاء حوله.

أجواء مختلطة: على السطح أصوات متفرقة لحركة سوق تبكي على نفسها، وفي الأعماق صمت مشبع بأنفاس الكتب، كأن الأنفاق تعيد تدوير خوفها بكل نفس.

***

كان صعبًا على عمر أن يتكلم. انخزلت القدرة على المواساة من جوفه، فظل يراقب يديه، يتذكر طعم الطين، رائحة النهر الممزوجة

بقايا الحبر الأسود ليلاً... أن تنقذك المخطوطة مرتين وتخذلك مرة واحدة، فتلك لعنة لم ينج منها أي كاتب أو ناسخ منذ سقطت خطوط بابل وتبابُ الشعراء الأوائل.

حتى زينب، بعنادها القديم، لم تجد إلا الصمت ملاذًا من الغصة. كلما استشعرت أمل النجاة في حكاية كانوا هم أبطالها، ينقلب الأمل إلى خيط بارد يلتف حول عنق الحاضر، يخنق صرخة الانتصار قبل أن تكتمل.

كان الجميع يفهم أن الخسارة ليست خسارة مخطوطة فحسب، بل خسارة إرث ومدينة وعائلة.

***

قال عبد الرحمن أخيرًا بصوته الخشن:

- "لماذا نعاقب أنفسنا بفقد ما لا يقدر أحد على منع ضياعه؟ النهر لا يُعاتب..."

لكن عمر لم يجبه، بل رفع رأسه وأغمض عينيه، يستعيد تفاصيل الليل كما لو كان يطلب شفاعته من الماضي.

***

فلاش باك: ليلة احتراق الورشة

كان الهواء مليئًا برائحة الدخان، وعمر طفل يختبئ خلف باب صغير. كان والده يدفعه للخروج: "أركض ولا تلتفت!" لكن عمر التفت، فرأى نارًا تأكل صفحات ورقٍ كتبها أبوه بمداد عمر كامل.

كانت النار تلتهم جدران الورشة، وتترك خلفها أبًا عاجزًا وولدًا مشلول الروح من بكاء لم يستطع منعه ليوم ستكتبه الأقدار ذات ليلة.

في تلك اللحظة، أدرك عمر، ولو كان صغيرًا، أن بوسع النار أن تأكل كل شيء إلا ما تغرسه الذكرى في قلب يتلوى على رجاء الحلم.

نهاية الفلاش باك

***

قال الشيخ يوسف، وقد دخل برفقة محيي العجوز:

– "أيها الرفاق... الليل لم ينته. كل فجرٍ ينجو شيء من الأرواح ويموت شيء آخر في قاع النهر. نحن الآن بحاجة أن نقف بين الخوف والعناد، بين بكاء فقدان مخطوطة

وضرورة كتابة ما تبقى قبل أن يهتك الزمن ما بقي لنا".

أشار بيديه إلى أن يُعدّوا الأدوات، وأن كل واحد منهم مسؤول عن نسخٍ أسرع، وأن المخطوطات لم تعد نصوصًا للأجيال، بل رسائل إنقاذ للعصر عينه.

أمر قاطع: "كل كلمة تُنسخ اليوم تعني أننا أحياء. ليس علينا سوى الصبر، ولو ملأ العسس في الخارج كل أزقة المدينة".

استجاب الجمع على الفور، كأن كل واحد قد قرر أن يجعل حزنه أداة للحرب؛ عمر شدّه لمعان عيون يوسف، فيها وجع آباء فقدوا أبناءهم وبقوا يروون للأحفاد سيرة المنسيين.

جلس عمر على طاولة منخفضة، أمامه مخطوطة ابن رشد الباهتة بالحبر، وأوراق فارغة، وقارورة حبر صغيرة. خط سطر البداية في تردد متوتر:

"في زمن يموت فيه الحبر على عتبة الكلام، تصير الكلمة جدارًا ونهرًا ومقامًا. أيها القارئ القادم، كن رسالتي... ولو بعد مائة سنة".

***

ارتفعت أصوات النسخ في القاعة: حفيف أوراق، نقر أقلام، طرقعة أنفاس مقهورة تجاهد لعناق الحياة. زينب ركزت أعصابها على نقل رموز جدها الفلكي من ذاكرة العين إلى حروف متناقصة الأمل. كانت تهمس بكلمات معهودة:

- "لا تمحُ نجمة بجهل، ولا تسقط كلمة بإهمال..."

بين سطر وسطر، راحت تتخيل الليالي الطويلة التي علمها فيها جدها أسماء المذنبات، سنن الكسوف، مواعيد المد والجزر. لو لم تجد ضوءًا للنسخ الليلة، فستخبئ كل علمها في رأسها وقلبها... في الحكايات والفلك وأصابعها التي لم تخن رسم الكواكب يومًا.

***

ازدادت حركة السوق فوقهم اضطرابًا. دخل أحد الفتيان من الحرس القاعة وأشار إلى يوسف بنبرة حاسمة:

- "العسس يفتشون الحي بيتًا بيتًا. هناك خبر أن الكتب المفقودة تلقت نسخًا تحت السوق. بعضهم قال إن عبد الرحمن شوهد مع غرباء عند الفجر".

استدار عبد الرحمن وتصلب وجهه:

- "عليّ أن أخرج، وإلا جرت الشكوك إلى هنا. دوري أن أُضيع الطريق بينهم".

قال عمر، وقد نما فيه زمهرير العزم:

- "اترك مخطوطة الفقه هذه معي، وإن لم تعد فاعلم أن الورثة ليسوا منسوبين إلى سطرٍ واحد".

غادر عبد الرحمن في صمت، وقلبه معلق في كل دعوة نجاح وكل رجاء لا يُقال صريحًا إلا للغيب.

***

بقي الجمع في القاعة ساعات من القلق المكثف، كل دقيقة فيها كأنها من الدهر.

ثم دوت في الخارج ضوضاء مفاجئة؛ صوت أقدام تصطك، رائحة حديد، وانفجار يبلل جدار القاعة بغبار وحصى! هرع الجميع يحملون المخطوطات إلى مواضع أكثر أمانًا. فتح الشيخ يوسف بابًا سريًا خلف ركن الكتب، وأشار إلى الجميع بالدخول.

في الممر الضيق كان الضوء شحيحًا مثل بصر كهل، وكانت الأصوات من الأعلى توضّح أن العسس اقتحموا زقاق الحي... تسقط

صناديق فوق رؤوسهم، وتتماوج الأقدام فوق بلاطات باردة لا تعلم عن سر تحتها.

***

مونولوج داخلي لعمر:

"ليس بيننا وبين الفجر إلا دقائق الخوف. ليت الأب اليوم رآني... أم أن السقوط الأخير أعظم من أن يُشرح في حروف؟ كل ما أستطيع فعله أن أكتب. كل ما أريده ألا تتبدد صدفة لقائنا، أن تبقى زينب هنا، أن يبقى عبد الرحمن حيًا هناك... وإن متنا بين الحبر والماء فلن يكون لنا قبر... إلا في الذاكرة التي لن يحرقها أحد".

***

تحامل الجمع في الممر حتى وصلوا إلى قاعة جانبية أضيق لكنها أكثر أمانًا.

جلس الشيخ يوسف وجمعهم حوله وقال:

– "أحيانًا علينا أن نترك المخبأ لأن النار أقرب إلينا من الماء. سنخرج من الجانب الجنوبي، وسنمر إلى الدير المهجور، حيث علمنا أن بعض الناس اختاروا أن يخزنوا الكتب تحت الصوامع".

كان على عمر وزينب، مع ثلة قليلة من النساء والرجال الحاملين للدفاتر، أن يعبروا الطريق بين جدارين متصدعين.

تسللوا واحدًا تلو الآخر، لم يعد هناك سبيل للكلام، ولا حتى للبكاء!

كانوا فوق تراب المدينة غرباء، وجوههم مطأطأة، أنفاسهم كالمعدن المجلجل في أقبية البوتقة.

***

زقاق الدير حي بلا حياة: الباعة يغلقون الأبواب بعجل، النساء يجررن الأطفال نحو السراديب، والجنود يجتازون الطرقات محملين بقسوة أمراء يخشون كل كلمة سوية اندست في سطر أو تهويدة طفلة نجيّة.

توقف الجمع أخيرًا عند باب الدير، فضغط يوسف مرة ففتح أحد الرهبان الباب خلسة وأدخلهم بسرعة. في الداخل بدأت أصوات التراتيل تذوب في أصوات النسخ من جديد.

احتضنت زينب فتاة صغيرة كانت تعدو بين الصفوف، ولما سألتها الطفلة ببراءة:

– "هل أنت خائفة؟"

اكتفت زينب بابتسامة مشوبة بالحزن، وردت:

– "أنا أبحث فقط عن نجمة مفقودة فوق الأندلس".

همست الطفلة:

– "أمي تقول إن الله يخبئ النجوم للخائفين في الليالي المظلمة. لا تخافي..."

فضحكت زينب، كمن وجد فجأة في براءة الطفولة سر الشجاعة التي لم تعطها المدينة لقلب امرأة في القصور!

***

بين الرهبان كان رجل كهل بلحية بيضاء ووجه سموح... قال لعمر:

- "قد خبأنا كتبًا في أقبية الدير منذ أجيال. حين جاء جدي من طليطلة كانت الحرب نارًا، لكن الحبر بقي. كل من يكتب سطرًا هنا، سطر يسقط في قاع المستقبل".

***

فلاش باك - ليلة عند بحيرة الدموع

كان عمر طفلاً يمرض أبوه إلى جواره، يسهر حتى تبرد الحمى بنخلة زيت فوق الجبين. في ساعة تعب كتب أبوه له:

- "هناك ماء لا يطفئه إلا الحبر. اكتب يا بني، ولو على صفحة النهر العريض. سيجيء يوم تكتب فيه لنا النجاة أو تكتب فيه علينا الفناء... لكنني أحبك، وسأظل أحبك حتى تكتب أنت حكايتنا من جديد".

***

بلغ اليوم منتصفه، وفي قلب القاعة تناسجت موسيقى الأصوات: دعاء الراهب الأول، حفيف مخطوطات تئن تحت الأيدي المرتجفة، بكاء طفل، وأصوات النسخ المتقطع بين اليأس والكبرياء.

اعترض الرهبان عند باب الدير مشادة بين جندي غض وامرأة مسنة ترتدي ثوب الأرامل... بين تهديد الجندي واستغاثة المرأة سقط رغيف على الأرض.

تقدم عمر ليحمل الرغيف ويعطيه المرأة دون أن ينبس ببنت شفة. التقت مخاوف الجندي بعين الفتى، وحملق في وجهه طويلاً:

- "أتعرف كيف يخرس الكلام حين تصبح المدن حبرًا في الماء؟"

لم ينتظر عمر جوابًا... ابتسم وترك للجندي، لأول مرة، شعورًا بالريبة والبطولة معًا.

***

في آخر النهار، عادت المجموعة إلى ملجأ جديد، وقد حفظ كل شخص منهم ما قدر على حفظه في صدره، وعلى الورق، وفي نظرة طفل، وفي رعشة يد، وفي أمنية راقصة على نهر كادت تفقد الحبر إلى الأبد.

جلس عمر إلى جوار زينب وهما يتأملان القرطاس الذي بقي نصفه في جيبها ونصفه ضاع في الماء، همس لها:

- "الحبر يموت... لكن لو بقي فيك هاجس واحد بالكتابة فسنحيا جميعًا من جديد".

قالت وهي تنظر إلى أصابعها:

- "سأكتب القصص، وأحفظ أسماء الكواكب، وأخبر من بقي هنا أن كل شيء قابل للغرق... إلا الحلم".

وغرب النهار فوق قرطبة التي لم تدرك أن في سرداب ديرها حبرًا أريق في الماء... لكنه لا يزال ينبت في الصدور بذور الكلام.

***

في ركن معتم من بيت القائد جعفر الصقلبي، كان الأخير يراجع تقارير العسس في لهفة. لم يكن مهوسًا برأس عمر أو دم زينب فقط، بل صار يخشى شيئًا جديدًا: أن ينجو الحبر، وتتحول بلاد الظل هذه إلى حكاية يرويها أطفال كانوا يومًا ماءً وسرًا وكلمة.

أدرك جعفر، لأول مرة منذ زمن، أن السلطة لا تحكم إلى الأبد، وأن الحبر إذا انفلت إلى الماء قد يجعل من النهر مرآة يصعب طمسها، وإن أحرق سلطان ألف مدينة بعدها.

وهكذا تبدأ نهاية يوم، لا يعرف فيه أحد من ربح ومن خسر، سوى أن الماء عاشق للسر، وأن الحبر... وإن سال فيه... سيظل علامة حياة للمحزونين، ومصدر فجر جديد للقلم المقاوم.

الفصل السابع

عين الأسوار

لم تحمل شمس الصباح السابع في قرطبة وعدًا جديدًا. كل أشعة كانت تلامس الشرفات والجدران تحمل في طيّاتها

سؤال الخوف: كم حلمًا سيذوب اليوم في ظلال المنصور؟ كم كتابًا آخر سيذروه الحرق أو الخيانة على بلاط الأسواق؟ في شوارع المدينة، أصوات الباعة أكثر خشونة، أما وجوه الرجال والنساء فقد ازدادت انغلاقًا، حتى الابتسام أصبح تهمة يُستحسن كتمانها.

في ذلك الفجر، وبين سوق الوراقين والبزار الكبير، كانت عيون ترقب خطوات عمر وزينب وعبد الرحمن وهم يتنقلون من زقاق إلى زقاق. ثيابهم مغبرة، أكتافهم منحنية بوزن السهر والخوف، ونظراتهم تعكس بريق حذر وشك لا يفارق من تذوّق الهرب الطويل.

لم يكن مقصدهم هذه المرة مكتبة أو دهليزًا أو ديرًا، بل الموعد مع يوسف، كبير ديوان الحكمة في "بيت العين"، بيت عتيق يُشاع أنه مركز العصب السري الذي يحرك أغلب خيوط المقاومة، والذي تعرفه القلة باسم "عين الأسوار".

كان عبد الرحمن يسير أمامهما، يقود بخبرة من تمرّس في الطرق الدفينة ومخابئ المقاومة، وأحيانًا يطلق نظرات سريعة تشقّ الجموع بحثًا عن ظل جاسوس أو حركة تفضح عينًا آثمة. أما زينب فصارت تسير بجسارة ليست من ترف البنات في سوق الحرير، بل ضرورة الملاذ الأخير للفارين من التاريخ وأنياب الظلمة. عمر، وهو ناسخ اعتاد حمل القلم لا السكين، تغير داخله شيء لم يخبر به حتى أقرب

أحلامه: صار يحمل بين أصابعه القلم أشد خوفًا وشغفًا، كأن كل خطوة تصنع فيه كاتبًا جديدًا وتكسر فيه طفلاً قديمًا.

***

وقفوا أخيرًا أمام المنزل: باب خشبي ثقيل، تعلوه قنطرة قد نقش عليها رمان وعناقيد عنب، ومفتاح نحاسي كبير غائر في جذع الباب، فكأن كل من يعبر يُختبر أولاً بثقل يده وقوة قلبه.

طرق عبد الرحمن بترتيب محكم: دقتان، توقف، ثلاث دقات متقاربة، الشيفرة المتفق عليها بين رجال الديوان وقادة المقاومة. بوسع عمر أن يسمع نبضات قلبه تتسابق مع قرع الباب، فيما شعرت زينب بأن في جوفها فراشات برية ترفرف لتحمي ما هناك في صدرها من نور علم وألم.

فتح الباب شاب طويل القامة، عيناه صغيرتان، لكنه يبتسم نصف ابتسامة يعرفها المتمرّدون جميعًا: تلك الابتسامة

التي تعلن "مرحبًا بك، لكنك مراقب منذ الآن وحتى تقوم الساعة".

قال الشاب بصوت خافت:

– "المجلس في الداخل بانتظاركم".

ثم لمح زينب، فانفرجت ابتسامته أكثر، وتوقف لحظة ليحني رأسه باحترام ساحر:

- "من نجا من عيون المنصور له هنا بيت لا يسقط مهما ترنحت الأسوار".

***

أخذهم الشاب عبر الردهة، جدرانها تحمل عشرات المخطوطات المعلمة بأختام مجهولة، وفوق كل نافذة رُسمت عيون خرافية بمقاسات وألوان متنوعة. كل "عين" رمز، كل ظل خلفها مراقب أو مراقِب. شيء في أجواء المكان يذكرك أنك لست في دار عادية، بل في خلية نحل ملأى بالسم والرقى، بالموت والأمل معًا.

على الطاولة الدائرية، تحت ضوء قنديل هش، جلس يوسف، تبدو عليه تلك الهالة المخلوطة من الحدة والحزن،

كأنه رجل عاش أعمارًا لا عمرًا واحدًا. قربه جلس رجل قصير شديد الامتلاء، ذو حاجبين كثيفين، يُدعى لؤلؤة، يُهمهم وهو يعد خرائط حجرية بدقة مهندس فذ.

فور دخولهما رفع يوسف عينيه، وبرغبة أبوية نهض ليصافح عمر وزينب وعبد الرحمن بحرارة تخص من قطع الليل كله من أجل فكرة لن يطويها التراب ولا النكران.

قال يوسف بصوت خفيض لكنه شديد في العزيمة:

- "لقد بلغنا أنك أنقذتَ أكثر مما خسرتَ، وأن الحبر صار نصفه في النهر ونصفه في القلب، وهذه هي المعجزة التي كنا ننتظرها".

اقتربت زينب وجلست دونما خوف، رفعت رأسها وقالت:

- "لا المعجزة في النجاة، بل في أننا نقاتل بأوراق أمل وأوفياء أقلام. العلم في زمن القمع ألم... لكن الهرب من الوجع خيانة للنجوم".

ابتسم يوسف وقال:

- "إن قلبي يطمئن بوجودكما هنا. لكن المهمة الآن صارت أدق وأخطر. الأخبار انتشرت بسرعة أن كتبًا فُقدت من أرشيف القصر، وقائد الحملة الجديدة هو جعفر الصقلبي نفسه... رجل إذا اشتم رائحة ثورة يتبعها حتى فوهة الجحيم".

***

عاد عبد الرحمن ليجلس جنب عمر، ثم اقترب لؤلؤة بفنجان صغير من الشاي الأخضر، قال هامسًا:

- "جعفر ليس مجرد كلب حراسة عند المنصور. في قلبه جرح قديم، يتآكل صدقه وخيانته كما يتسلل الحبر في ماء الراهب. وهو الآن... يريد رأس كل من ظن للحظة أنه أقوى من رماد مكتبة منسية".

***

تبادل الجمع الأخبار والقصص: يوجد جرحى في صفوف الحراس نتيجة مواجهات لا تُعلن للناس، وقد اختفى شيخ آخر يحمل أسرار طرق الهروب عبر الحمامات الرومانية، أحد الفقراء هو الآن حلقة

الوصل مع طلاب الفقه في جامع ابن عميرة. والخطر يزحف من كل زاوية: جواسيس الوالي، خيانات أطفال تمت بعملة نحاسية ووجبة لحم، ونساء

يُرغَمْنَ الفقر على الإبلاغ عن أي كتاب يُباع في السوق السوداء.

عندما سمع عمر هذه الحكايا شعر ببرودة مشؤومة تزحف بين عظامه، لكن يوسف كان يمتاز ببرودة صلابته "الحنونة"، أن ينقضي. القلق في صدره بأن يروي موقفًا شخصيًا.

***

فلاش باك: يوسف أيام كان جاسوسًا

يوم كان يوسف شابًا في مطلع شبابه، أرسله المولى المنصور ليتقصّى أنباء المتآمرين عليه في مجالس الوراقين والخطباء. كان يؤمن أن كل مقاومة للعقل جريمة، لكنه حين رأى طفلاً يتسلق جدار مكتبة ليعطي قطة خبزًا... أدرك في عيني الطفل معنى الحياء والرغبة في المعرفة. في تلك الليلة أقسم أن يكون خنجر العلم لا سيف الجهل. أنكر على نفسه أن يخون حتى عندما كان عليه أن ينجو بحياته. تلك الخطيئة الأولى... صارت عقيدته في المقاومة لاحقًا.

***

عاد يوسف إلى الحاضر، حملق في الجمع، ثم أخرج من جيبه ورقة خفيفة كتب عليها قائلاً:

- "هناك مهمة لكل واحد منكم:

يا عمر... سنقسم نسخ المخطوطات ودفاتر الأمل على ثلاث فرق.

يا زينب، أنت مكلفة اليوم بترتيب موضع النجوم القديم تحت منارة القصر، هناك مخبأ جديد قد لا يعرفه حتى جعفر الصقلبي نفسه.

أما أنت يا عبد الرحمن، فدورك الآن حسم الحكاية مع أحد معلّمي الأطفال في السوق، لقد أظهرت التقارير أنه يزور بيت الحاكم ليلاً سرًا".

هنا تردد الجميع للحظة؛ صمت مباغت كأنهم على عتبة حفرة عميقة لا خيار إلا القفز فيها أو الموت وقوفًا على الحافة.

***

حسمت زينب الأمر، هزت رأسها وقالت:

– "كل نجم يعرف أين يُخَبِّئ السر. أما أنا فسأعبر سور القصر ولو بجناح عصفور. الحبر جُنّة وحيلة، والسيف لمن ليس في قلبه نور العلم".

سُحِر يوسف من شجاعتها، موجهًا لها حنو أب، وكما وجه لعمر كفّه، وقال:

– "إنها قرطبة التي تحولت إلى الرماد. من بقي لكم هو من يكتب تاريخًا آخر صامدًا في سماء نجومه تحرس لياليه. كونوا أذرع العين، لا نبض الجدران".

***

في الخارج، كانت الشمس تصعد إلى حد كتفي السوق، وحركة الناس حذرة، كأن كل ظل فيها صار شاهدًا على جريمة لم تحدث بعد.

انطلق الجمع، كل إلى مهمته.

***

خرج عبد الرحمن أولاً، تخفّى بين باعة السلع القديمة، متجهًا إلى زقاق المعلمين حيث تقع حكايا البسطاء في فخاخ اللغة المكنونة. سرعان ما ألمح ابن خاله، الفتى

النحيل الذي يقضي النهار في بيع أقلام الرصاص ويقضي الليالي في نقل الأخبار للأقوياء والضعفاء دون تمييز. التقط منه إشارة: رزم القش وُلدت للتغطية على رسائل الشكوى والتحذير.

راقب عبد الرحمن بصبر حكيم، ودس في يده ورقة ملفوفة بعناية داخل تجويف قلم، تركها خلف الرف دون أن يلتفت. كان يعرف أن هناك من يراقبه، فالإشاعات لم تمت أبدًا في مدينته الآيلة للسقوط أو الانبعاث، فقط تتبدل الجلود والأقنعة.

في تلك الأثناء، عزمت زينب أمرها واتجهت نحو الطرف الجنوبي للسوق، حيث تتلاصق جدران القصر مع خرائب البيوت القديمة. وضعت فوق شعرها عمامة نساء السوق، ولفت عباءتها على كتفيها

لتخفي علامات أهل العلم والأرستقراطية. لم يكن الدخول إلى القصر أمرًا سهلاً، لكن بين الحفر والزوايا كانت لها خبرتها منذ الطفولة.

مرت بزقاق العطارين، وحين لاحظها أحد الجند، شدت بيدها طفلة جائعة كأنها أمها، ومضت في هدوء الأمهات اللواتي لديهن موعد خطر على تخوم النهار. سمعت الجنود يتساءلون:

- "هل رأيتم امرأة بعينين تشبهان وجهة الفجر على برج القصر؟"

لم تسرع، لم تبطئ، فقط اختارت أن تكون ظلاً يُحاكي جدارًا ألفته منذ طفولة الأدراج.

ما إن غابوا حتى وجدت في واجهة القصر الجنوبية ثغرة صغيرة خلف شجيرة رمان، العلامة التي حفرها جدها الفلكي ذات ليلة لينقذ أبناءه ذات يوم عصيب كهذا. أخرجت من معطفها خريطة ورقية طواها الزمن، قرأت الرموز وتمددت أرضًا، زحفت تحت الشجيرة، ثم دفعت بلوحة حجرية فامتلأ فمها تراب الطفولة والنبوغ معًا.

كان خلف الحجر دهليز مشحون برائحة عطن وذكرى أفلاك غابرة. وكل حركة في العتمة تُحدث ارتجافة قلب. عبرت زينب النفق المنخفض متذكرة قصة جدها: "حين يصبح القصر مقبرة للأمل، سينقذك العلم وحده من جهل الموت الأحمر".

وفي زاوية النفق واجهت البوابة الحديدية المؤدية إلى برج المنارة. أخرجت التحف الصغيرة من جيبها: مفتاح عتيق وكرة من الزجاج أضاء جدها فيها نجمة وهمية. همست، والصدى يرتد:

– "لقد جئنا للعلم يا جد، يا كل علمائي، نجونا من السيف حتى يكون للحرف شهيد واحد إضافي!"

سمعت من الأعلى خطوات جنود. احتبست أنفاسها، اختبأت بين البراميل القديمة حين عبر فوقها ظل سميك وهمس أحد الحراس:

– "لا أثر هنا. ليكن في العلم نجاة لهم ولنا، وفي الذل موتنا جميعًا..."

ظلت تنتظر حتى تهدأ الحركة، ثم خرجت بسرعة وثقة، وسارت إلى المنارة تحت عباءة الظلام.

***

أما عمر –ناسخ اللحظات الحرجة– فقد ذهب صوب الوراقين، حيث الشبهة أشد والحراسة أضيق. عليه أن يسلّم نسخة عن إحدى المخطوطات لصبي زرعه ديوان الحكمة بين الكتبة الفقراء. أراد أن يلتقي "مسلم الوراق"، شيخ كبير في السن، اشتهر ببيع الكتب المحظورة سرًا.

في طريقه، تقاطعت أنظاره مع عيون صبي غامضة؛ لمح في عينيه خوف ليل متعب، كأن في ملامحه آثار حكايا الملاحقة

المطلقة، أو أنه رأى في وجهه مرآة لنفسه الصغيرة التي فقدت الأب والأمان.

تقدم إليه الصبي قائلاً بنبرة توحي بملامح رسالة سرية:

– "يا سيدي، الدموع على الحبر لا تنفع، لكن الحكاية إذا فُسّرت لأحدهم... ربما تصبح حبل نجاة لأحد في البعيد". ناوله المغلف وأكد عليه بكلمة سر:

– "عين الأسوار لا تنام. إن سال الماء جفّت الحفرة، لكن السر لا يجف إلا إذا خانه صاحبه".

سلّم الصبي النسخة وانسحب متجهًا إلى الجنة الصغيرة التي يؤوي إليها أطفال الوراقين الهاربين من القانون وتجار الخيانة.

***

بعد ساعتين، انتصف النهار، وبينما يجتمع يوسف في "عين الأسوار" لمعرفة آخر التطورات، دخل عليهم فجأة رسول ملثم يحمل خبرًا عاجلاً:

– "قائد العسس جعفر الصقلبي عرف بدخول أحد الأشخاص برج المنارة سرًا، وأصدر أمرًا بتشديد الحصار على دروب القصر. أيضًا أُلقي القبض على صبي صغير يُتّهم بتهريب المخطوطات لعمر بن يوسف!"

ارتجّ الجمع للحظة، ودبّ الذعر في العيون. صرخت زينب في قلبها، وشعر عمر أن حبيبات الرمل تحت قدميه تتحول إلى رمال متحركة تبتلع نفسه وسيرته.

لكن يوسف ظل صامدًا:

– "هذا ما توقعناه. لا نُكسَر، لا نَخُن. بل نتحرك الآن أسرع، وأمضى".

***

مونولوج داخلي لجعفر الصقلبي:

على الجانب الآخر من القصر، كان جعفر يجلس في ديوان مضاء على غير عادته بضوء أحمر شاحب كخطر يسكن العظم، يقرأ تقارير جواسيسه ويراجع خطوط الخيانة في محبرته القديمة.

خيّم صمت لم يعرفه مذ كان عبدًا يجهل نسبه وواجبه.

"أيها السيد المنصور... لقد ربيت أبناء العلم على المهانة ثم تركتهم للسيف حفاة. لكن، هل سيكفي السيف اليوم لوقف مدّ الحبر؟ إنك وحدك أوهمت الجميع أن ظلال القصور قادرة على إخماد الشمس".

مدّ يده إلى سيفه، تمعن في انعكاس صورته على حد السلاح، وأغمض عينيه لحظة طويلة. لوهلة، لم يعرف شيئًا إلا أنه تعب من لعبة تكسير الأرواح، وأنه ربما، في مكان ما وراء أسوار العين، هناك صبي سيكتب القصيدة الوحيدة الجديرة بأن تُقرأ.

***

عاد الليل سريعًا، ولم تهدأ القلوب ولا الأسوار. أرسل يوسف خريطة جديدة لعمر وزينب وعبد الرحمن، رسم فيها خطة للهروب إلى سراديب مرمرة، وأرفقها ببيت عربي قديم:

"إذا ضاق صدر العلم يومًا، وسعته عين ساهرة في جفن الظلمات".

***

بين الصفحات، ومن تحت حجارة الأزمنة، صار عمر وزينب ومعهم عبد الرحمن وإنسانية مدينة كاملة يجسدون الحبر الذي لا يُمحى مهما ازدادت العيون والسيوف، ومهما التصقت السماء بأرض قرطبة المنكوبة بالخوف والمجد.

وهكذا انتهى يوم آخر من أيام "عين الأسوار": لم يدرك أحد من ربح ومن خسر، إلا أن تفسير الأحلام لم يعد يجيد المشي. في وضح النهار، وأن المدينة التي تسكنها ألف عين... ما تزال في القلب حلمًا مفتوحًا لمن يجرؤ على حمل الحبر إلى أبواب الموت والنور معًا.

الفصل الثامن

خيوط في العتمة

لـم يكـن الليـل في قرطبـة منـذ سـنوات كسـائر الليـالي. أنفـاس الزقـاق تـزداد قِصَـرًا، والأنـوار في النوافـذ تـذبل بـاكرًا، كأنهـا تخـشى أن يراهـا طـارق متـأخر أو عـين جاسـوس تسللـت مـن معـين المنصـور أو عيونه المتربصة بحياة المدينة.

***

في "عين الأسوار"، حيث كل جدار يهمس باسم شهيد أو حلم مقمـوع، اجتمـع عمـر وزينـب وعبـد الـرحمن قبـل الغـروب بساعـة، حولهم يوسف والكبار من رجال الديوان والنساء اللواتي اتخذن العلم سلاحًا والخوف جسرًا إلى أمل صار لا يشبه الأماني القديمة.

كـان اليـوم مختلفًـا؛ فقـد جـاءهم مـن "شـبكة الظـلال" (وهي المنظمة الأخرى الأكثر غموضًا، والتي تنتشـر شـائعاتها بين الـوراقين والسراديب) رسالة طارئة، كُتبت على رقّ معطر لكنه مشوب بحبر قاتم: "هناك خائن بينكم. هناك سر أكبر مضى نحوه أعداء الحبر. العلـم لا ينجـو إلا عـلى أجنحـة النـار أو عـبر دهـاليز الدمعـة الأخـيرة. احـذروا العيـون المحميـة باسـم المقاومـة، وافتحـوا عقـولكم للشقـوق المظلمـة الـتي تخـفي الأحقـاد كمـا تخـفي حبـة الحنطـة تحـت نعـال السجان".

وحين قرأها يوسف، انعقد جبينه كحبل مشدود فوق بئر من الغموض، نظر إلى الرفاق بصرامة جديدة:

– "ما رأيكم؟"

ساد الصمت، ثم تكلم عبد الرحمن:

- "ربما يكون فخًا تبثه عيون المنصور ليفسد قلوبنا ويزرع الرعب". لكن عمر قال مباشرة:

- "وسواء كان الفخ من الداخل أو الخارج، فالسم لا ينبت إلا حين يسكن الشك القلب".

أما زينب، فقلبت الرسالة بين أصابعها وتعلقت عيناها بها لحظات من التحدي المشوب باليأس:

- "من يكتب هكذا... يعرفنا من القلب أكثر مما يحسب. المسألة ليست فقط في كتب تُهرَّب أو أقلام تُكسَر. الخطر أن تُسرق مقاومتنا من داخلنا".

هز يوسف رأسه، وقد بدا في عينيه كِبَر كل الأزمنة التي مضت والعصور التي ستجيء:

- "عمري كله علمت أن لا شيء يدمّر الحلم مثل الفتنة ومكر القريب. الليلة نمتحن الصدق أو نكتب هزيمتنا بأيدينا".

***

انتقل الجمع إلى "قاعة الهمس"، غرفة سرية عميقة بين الجدران، مضاءة فقط بمصابيح زيتية خافتة. لمجلس الليلة طقس قديم: النظر في العيون، صمت طويل من التأمل، ثم يهمس كل واحد باعترافاته أو مخاوفه أو يعرض تقرير الليل السابق.

بدأ عبد الرحمن الكلام أولاً، وقص خبر لقاءه في السوق مع حامل القش وابن خاله، كيف شعر بأن في خطاب أحد الباعة تعاطفًا، لكنه لمح في كلماته نفحة تهديد أو وشاية. قال الشيخ يوسف:

– "قلت مرارًا: الخائن لا يلبس دائمًا درع عدوك، بل يستخفي في زي الخائف والضعيف".

أما عمر، فروى قصة وفائه للصبي الوراق، كيف سلّم النسخة ثم رأى في عينيه خوفًا أعمق من مجرد طفل جائع، ثم أضاف هامسًا:

– "كل يوم أكتشف أن مدينة الخوف تلد صغارًا كثيرين، بعضهم يصبحون رجال المكر قبل أن يتعلموا الكلام، وبعضهم ينطفئون بين الحبر والدمع".

لم تستطع زينب إلا أن تروي حكايتها في البرج، دهليز النجوم والظل، كيف اختبأت خلف البرميل، وانتبهت إلى مرور رجل قرطبي الملامح، يرتدي ثياب الجنود، لكن بين أصابعه خاتم فضي. عليه نفس رمز ديوان الحكمة.

سألها يوسف دون تردد:

– "هل تعرفينه؟"

هزت رأسها:

– "رأيته مرتين: مرة بين الوراقين، ومرة في مجلس الأطباء. هل يمكن أن يكون جاسوسًا أم رسولاً بين شبكتين؟"

ظل الكلام يتبادل كحبة قمح تتقاذفها الأيدي. أصابع الشك تلمس الجميع، والليل يزداد اختناقًا بريح باردة وعربة جنود تصهل في ساحة السوق وتطرق طبولها للعسس والوشاة.

***

فلاش باك: عبد الرحمن... أول خيانته

لما كان شابًا، صُدم عبد الرحمن حين كشف بالصدفة أمر أحد رفاقه في مدرسة الفقهاء. كان هذا الرفيق ينجو دومًا من غضب العسس ويلتقط أفواه الحديث بسرعة النمام ودهائه. ذات ليلة، وجده يتسلل إلى المسجد يحمل رسالة ملفوفة ويودعها خلف محراب الإمام... في الصباح اعتُقل الإمام ورُميت تهمة الزندقة على الابن. في تلك الليلة، عرف عبد الرحمن أن قبض الريح أسهل من القبض على قلب يبيع السر لمشتهٍ أو خائفٍ أو طامع.

انتهى الفلاش باك

***

انقطع حبل الحديث حين دُقّ الباب طرقًا خاصًا لا يعلم رمزه إلا القدماء. دخل شيخ مسن غريب الهيئة، في عينه كدمة بنفسجية، وأصابعه تحمل ندوب أيام طويلة في ليل القمع، عرّفه يوسف فورًا:

– "هذا بدرون، بريدي القديم من شبكة الظلال".

جاء ليقول بصوت متحشرج:

- "كبيرنا قُتل الليلة الماضية في سراديب الحمامات، وقع في الفخ المزدوج بين خائن منا وسوط أحد سرايا جعفر الصقلبي. هناك كلمة سر جديدة: لا أحد يسلّم شيئًا إلا إذا قيل له بيت الشعر: «إذا الماء أضمر ظل القلم صار للحبر قبر عند باب النهر»".

أشاع خبر الموت والخيانة أجواء سخط وألم، حتى أخذت عيون الحاضرين تفرز عبر الظلمة فلسفة المقاومة بأجمعها: أيهما أخطر، عدو يواجهك وجهًا لوجه، أم قريب يرتدي ثوب المقاومة ليطعن صديقه ساعة الإغفاءة؟!

***

في هذه الأثناء، في غرفة بعيدة خلف مجمع القصر، كان جعفر الصقلبي يحقق مع "مسلم الوراق"، وقد أحضروا صبيًا معصوب الرأس وجرحه ينزف. الجواسيس حوله يتبادلون الابتسامات الصفراء.

وقف جعفر وقال بصوته الجاف:

- "أعطني من كتابتك سطرًا يليق بكفاحك، أو سأنسف رأسك في ساحة السوق غدًا!"

ارتجف الصبي، ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس:

- "سيدي، المدينة ملأى بالكتب. لا أعرف طريق الحبر، لكنه يسيل في كل زقاق، ما ينتهي إليه أحد..."

ابتسم جعفر ابتسامة الذئب:

- "إذًا لن أبحث عن الحبر... سأبحث عن أولئك الذين يكتبونه في الظلام".

***

في الداخل، قاعة الهمس، لم يعد ثمة يقين إلا بأنهم محاصرون من كل ناحية، حتى الهواء صار خبزًا حارقًا. اقترح أحد الشبان، واسمه ليث:

- "لنخدع الخائن بالفخ. أشيعوا خبرًا عن نقل كتاب مهم عبر بائع البذور، ولنُمتحنه: إذا وقع الخائن في الفخ وعرف جعفر، عرفنا هويته من أثر مسيره في الدروب".

وافق الجميع مضطرين، وتواطؤوا على تقسيم المهام: عبد الرحمن ينسق مع بائع البذور الوهمي، عمر يرتب دفاتر بلا قيمة، ويتأكد بنفسه من مراقبة التواصل. زينب تتقصى في عيون الرجال، ووعد يوسف بالبحث في أصول كل القادمين الجدد.

***

انطلقت الخطة. ساعات مريرة مضغت فيها الأعمار نفسها، عيون ترصد الوجوه، أيدٍ تمسد رقاب الثقة، ورجفة في كل قلب تخشى أن ينكشف السر، أو أن يكون الصديق أفعى المطر.

في زقاق السوق، فشل الخائن في المقايضة الأخيرة بعد أن كشفت زينب أمر رسالة قصيرة حملها شاب يرتدي عمامة من

سكان حمام القصر. وفي اجتماع ثانٍ عند الغروب، قُبض عليه ناقلاً كلامًا مشفرًا إلى أحد عسس جعفر.

***

القبض على الخائن لم يجعل الليالي أقل برودة. قال الشيخ يوسف في خطبته الأخيرة لتلك الليلة:

– "الظلام لا يبدأ من الخارج، بل من القلب. يا بني، إذا خانك رفيق القلم، كن أنت الحصن الأخير... قد تؤكل كتبنا، أما صدق الرفقة فلا يغلبه زمن ولا محبرة، ولو يبست دموعها كل أنهار قرطبة".

***

مونولوج داخلي (عمر): "عالمنا صار خيوطًا في العتمة. كل فكرة تولد لها ظل شاحب أو عدو أبكم أو حبيب خفي. لولا أني أدون هذه اللحظات، لتلاشيت نفسي بين الريح والبلاط، ولكنت هباء مذعورًا في ليل أعمى".

وبينما يهمس في داخله، لمس يد زينب تشد على يده قليلاً:

– "لا تحزن... لا تمح الحبر من عروقك، وإن كان حولنا ألف خيط وخائن وأسد".

أحس عمر فجأة بقوة جديدة، بقيمة أن يكون واحدًا من حراس الضوء في مدينة تغرق في خيوط الظلام.

***

وفي آخر الليل، بعد نجاح كشف الخائن، أعادوا ترتيب كتبهم، وزعوا الأقلام على الصغار، وحفروا تحت تكاتيف السير شعرًا جديدًا:

"من عتمة الخيانة يولد النور الماكر وتنجو الذكرى عبر زمهرير الليل وسيف الزمن، احفظوا الحبر، فأنتم أهل السر الأخير في زمن صرخة الوراقين الأخيرة!"

وفي الأفق، فوق برج القصر، لمع برق خافت... كأن قرطبة تريد أن تهمس: "لا النهر انتصر ولا الحبر هُزم، المعركة لم تبدأ بعد".

الفصل التاسع

صوت الحجارة

لم تسكت أبواب قرطبة تلك الليلة عن البكاء. في الأزقة الملتوية، رقصت ظلال جنود المنصور فوق الجدران الطينية، كأن كل حجر فيها يشي بأن هناك من يختبئ أو يهرب أو يوشك أن يُدفن.

لكن، في كل زمن تصرف المدينة فيه القهر فوق خاصرتها، ثمة شريان خفي ينقل الدم والسر إلى قلب المقاومة: أصوات خافتة، جدران تئن تحت خطوات الهاربين، حجارة تحفظ أسرار أجيال وتستدعي ظلال الأبطال الذين عاشوا وماتوا حراسًا للمعنى.

***

في قاعة "عين الأسوار"، كان الجمع يتهيأ للانتقال إلى الدير الكبير، حيث مركز تلاقي الديوان، بعد ليلة اكتشفوا فيها خائنهم الأول، وعرفوا أن شبكة الظلال لم تمت بعد، بل ازدادت دهاءً؛ صارت تصيد السذّج وتستدرج الحلم إلى مذبح الوشاية.

شعر عمر وكأن كل جسده صار جرسًا صغيرًا، يرتجّ بأبسط همسة أو صيحة. تعب الصبر في قلبه وازدادت عروقه قسوة، بينما كانت زينب بجواره توازنه بالطاقة المُهذبة للمحبة الصلبة، تلك المحبة التي وُلدت لا من نشوة انتصار، بل من وجع المعركة وحرقة فقد أول مخطوطة.

أما عبد الرحمن، فكان قد أعياه الشك في العيون، وحاول أن يقطع الطريق على نفسه ليمنع قلبه القلق من الارتياب في كل قريب.

جمعهم يوسف تحت السقف المنخفض، وشمعة ترتجف وقصاصات مخطوطات موزعة بين الأحجار المنحوتة. أشار لهم:

– "نخرج الليلة قبل طلوع الشمس. سلك القوافل القديمة تحت الحي الغربي سيمر بنا إلى حجرة الحمالين، بعدها نتابع إلى الضفة الأخرى حيث الدير".

حدّق الجمع فيه، في صوت حكيمهم الذي لا يرينا الدرب فقط، بل يذكّرنا أن الطريق هو النور والمحنة معًا.

قال عبد الرحمن بلهجة مقهورة:

– "كل خطوة في هذا الليل قد تذهب بأحدنا للأبد، أو بالأمل كله إلى بطن الأرض..."

رد يوسف بعينين تشع منهما روح الأجداد:

– "من لا يعبر الليل لا يدخل الفجر. الحجر إذا أسمعته الكلام أنبت وردًا، وإذا أهملته صار قبرًا لكل ما أحببنا".

***

اجتازت المجموعة الأزقة، وكانت المدينة قد استيقظ فيها القرّادون والكلاب والعسس. كل بيت بات أكثر صمتًا وأقل دفئًا؛ كأن المدينة تراهن نفسها: هل تُخفي سر المقاومة أم تبوح به لقاء ليلة ذعر أقل؟

عند حافة حوش مقفر فيه بركة ماء ومئذنة أثرية، وقف يوسف وأجلسهم حوله قائلاً بهدوء رجال الليل:

- "كل من يحمل كتابًا عليه أن يتذكّر وزن الحجر على القلب؛ سلوا الحجارة عن الألم قبل أن تسألوا الناس عن الصبر".

مونولوج داخلي لعمر: "أي كتاب نحمله الليلة؟ أي ذكرى تُكتب من جديد؟ أأنا ابن أبي حقًا، أم إنني تلميذ الناسخ الأخير؟ هل يكفي الحبر ليصنع عائلتي ووطني وحبيبتي وسند الكتاب أمام الفناء".

***

سارت المجموعة وراء يوسف، وانضمت إليهم سلمى، المرأة الشاعرة التي حفظت نصف المخطوطات في رأسها، وبقية القصائد في التجاعيد حول عينيها. غمغمت:

- "هناك مكان في الأسفل يحفظ الصوت، بعضه حجر وبعضه دعاء صغير وبعضه قصيدة لم يكتبها أحد بعد..".

دخلوا من بوابة خفية في الزقاق، حفرها القدماء زمن الفتن الأولى. ما إن عبروا حتى شعروا أن الأرض تحت أقدامهم تهتز، كأن المدينة كلها حكاية يحرسها نائمون وتمائم أمل منسي، والكلمة العليا للحجارة؛ فهي وحدها تشهد ولا تتكلم.

النفق كان باردًا مظلمًا، هواؤه ينفخ رطوبة تلتصق بالرئتين حتى تكدست الأنفاس على بعضها، لا ضجيج فيه إلا صرير الخطى وصفير قطرات تتساقط على الحيطان.

خلف كل انحناءة يمكن أن يكمن موت: جندي، حرف مسموم، أو وشاية عابرة أرسلها الليل.

مشوا في صمت، ثم عند منعرج ضيق، انكسر حاجز الظلام، وجدوا أمامهم غرفة صغيرة، حُفرت في سقفها أبيات شعر للعالم الضرير أبي بكر بن الفضل:

"بالحجر صوّت قلبي حين مات القلم،

ورسمت بيتي حين أغلق الناس الباب".

قالت سلمى:

– "هنا كنا نحفظ أول الاجتماعات حين سقطت القوافل. هنا، كل حرف ترك أثرًا في الحجر حتى وإن سقطت الورقة في النار".

جلس عمر يلمس الحائط، يحس زفرة قديمة عبر الأزمنة... كل حرف منقور في الحجر أسهل للبقاء، أقسى على النسيان، أصعب على السلطان. سأله عبد الرحمن هامسًا:

– "هل تظن أن الكلمات هنا ستنجو؟"

رد عمر وهو يتحسس أصابعه:

– "إذا كانت الكلمات تذوب في قلوبنا ثم تعود إلى الأفواه، فالحجر رسول الخلود الأول".

***

فلاش باك: سلمى الشاعرة

في صباها، كانت سلمى وردة الحدائق الأندلسية. في كل مجلس كانت تنشد الشعر كبارقة برق في ليل طويل. لكن، حين أحرقت المكتبات ونُفي الشعراء، اكتشفت أن الأبيات التي رسمتها على جدران الحمامات القديمة بقيت سنوات حتى بعد موت أصحابها، وأن كل أمير قرأ لها، دون أن يعلم، مرثية جديدة على حجر ما زال ينطق بعد قرن ونيف.

انتهى الفلاش باك

***

أثناء استراحتهم، بدت بوضوح أصوات فوق رؤوسهم:

أنين خطوات، صرخات عسس، طنين سيوف ترتطم بالأبواب.

همس يوسف سريعًا:

– "علينا الصمت أو التنفس بصمت الكتّاب في ليلة القبض الأخيرة".

لكن الخوف كان أبطأ من المفاجأة... إذ انفتحت بوابة فجائية صغيرة، فاطمأن الجمع، وكان خلفها فتى نحيل ذو شعر كستنائي وعيون مقلوبة بالحزن، يلهث وقد أمسك برقعة صغيرة كتب عليها بيت شعر سري:

"إذا مرّ ظل القمر،

علمت أن الحبر نجا وإن ماتت ألف قصة في جوف الحجارة".

عرف يوسف الفتى، همس بالفرح الصامت:

– "هذا أبو ربيع، أحد رسل شبكة الظلال... جاء بخبر أعظم من الخيانة هذه الليلة".

تنفس الجميع الارتياح حذرًا.

أخرج الفتى خبزًا يابسًا خبأ فيه رسالة سرية من كاهن دير ماريا: "الدير الكبير سقط جزئيًا في أيدي العسس، لكن هناك سردابًا يؤدي إلى قاعة الصلبان القديمة حيث تُحفظ دفاتر الطب والفلك. لو وصلتم غدًا عند الفجر، تكون الشمس في عين النافذة ويبدأ العسس غفوتهم. الوقت من ذهب... والحجر الصبور كنزنا الأخير".

***

تحرك الجمع مباشرة، واتبعوا تعليمات الفتى، وفي أعمق نقطة في الطريق شعر عبد الرحمن بنبضات قلبه تدق في رأسه كورق ناشف:

مونولوج داخلي (عبد الرحمن):

"كلنا نخاف، لكن بعض القلق قد يسعفك أن تعبر ليلة أكثر سوادًا من الموت ذاته... هل يعرف أهلنا في الأعلى أننا الآن هناك، بين صمت الحجارة، نخبئ ما تبقى من قصائد أمنا وصلوات أبينا؟"

***

الدير في الأعلى بدا كجزء من الرواية والرماد معًا؛ بين صلبان مائلة وكتب مطوية، صعد عبد الرحمن أولاً، وأشار لبقية الرفاق باللحاق.

خلف المذبح الحجري ثلاث خزائن خفية لمستها يد زينب في طفولتها حين كانت تتعلم رسم خطوط الفلك بين نجوم السقف.

قالت بهمس قاتل للوجس:

– "هنا أخفى جدي مخطوطة الدورة الكبرى للنجوم".

رفعت البلاطة برفق، وأخرجت دفتي الرق العتيق، وأخذت باقي المجموعة تساعدها بيد، وتكتب في حجر الدير القديم مرثية الليل:

"يا قنديل الرهبان،

ويا شاهدًا على موت الغرباء،

فيك شفاء المدينة

وكلمات تثقل عنق الزمن".

***

خارج الدير، دوّى ضجيج جموع من العسس؛ كان جعفر الصقلبي قد تنبه للطرق السرية مع شروق الشمس، فألقى أوامره:

– "من لم نجده في الشارع وجدناه في الحجر... احرقوا كل حائط كُتب عليه، واقتلوا أول من ينطق بسر!"

لكن الحجارة، لمن يعرف لغتها، لا تبوح إلا لصاحب القلب المخلص، وهكذا تمكن عمر وزينب ويوسف وعبد الرحمن وسلمى وأبو ربيع من سحب كتبهم وأوراقهم عبر فتحة جانبية تؤدي إلى خارج أسوار الدير، حيث يستمرون في السير بين المزارع حتى سوق الزيتون الكبرى.

***

وقف الجميع أخيرًا يلتقطون أنفاسهم، وكانت قدرتهم على الكلام أضعف من أن تورد وصف الفرح الصغير. نزع يوسف كوفيته ومسح عرقه، وضحك بصوت مكتوم:

– "هذه الليلة، دافع الحجر عن الحبر، ودافع الحبر عن المدينة... لن ننسى".

امتلأت عيون المجموعة بتلك اللؤلؤة النادرة: دمعة لا تسقط حزنًا على حجر، بل شكرًا للحجر على أنه ترك في الأرض صوتًا أقوى من كل جنود المنصور.

مونولوج أخير لعمر (يكتب):

"صوت الحجارة... ليس هناك أبلغ منه حين يصمت الناس. نكتب رغم كل شيء، ونغرس في كل كوة جديدة قصة لم تكتمل بعد.

غدًا... ربما نُطارد في الزرع أو المطر، لكن الحجر سيذكرنا، وأولاد المدينة سيقرؤون ظل النور على جدرانهم يومًا.

اللهم احفظ لنا لغة تُقال في المساء حين تئن أوطاننا ولا يسمعنا إلا الحجر".

***

حل الفجر، وغاب آخر عسس عن الدير، لكن المدينة بقيت عامرة بأصوات حجارتها التي لن تموت، وحراس الحكاية لا يعرفون لليأس طريقًا إلا إذا صار الموت نفسه لغة ثانية للحروف.

الفصل العاشر

علامة المنارة

كان الوقت ما بين صلاتَي الفجر والشروق حين بدا لون السماء فوق قرطبة يتدرج من حمرة غائمة إلى بياض شاحب، كأنه جرح أزلي يلاطفه النور بلا جدوى على ظهر مدينة حكم عليها الزمن أن تكون مهدًا للعلم، ومقبرة للحرية في آن واحد.

تسلّل ضوء النهار الجديد بين عقود المنارة القديمة، يبعثر الظلال البيضاء فوق شرفات قصر المنصور، وعن يمينها تنتصب المنارة الأسطورية كترنيمة حجرية إلى السمو، شهادة أبدية أن المعرفة أعلى من عنق السيف وأعتى من جدران السلطان.

في هذا الوقت، وقف عمر وزينب وعبد الرحمن وسلمى في بداية زقاق الصاغة، على بُعد خطوات من "مجلس العين"، حيث كان يوسف ينتظرهم بخريطة جديدة: خريطة منارة قرطبة، أو ما اعتاد كبار الديوان أن يسمّوها "منارة الخفاء".

***

قال يوسف وهو يفرش الرق على طاولة من خشب الجوز المصقول:

– "هنا علامة الأسلاف، هنا اختار المهندسون الأوائل موضع المنارة وفق رسم النجم القطبي، خط تلتقي عنده بوصلة السر مع جغرافيا الروح. في طي هذا الركن، فُتح باب قبل قرون لا يراه إلا من وثق بأن الحبر أنجى من النار".

كانت زينب أول من اقترب، وعيناها تحملان انفعال الطفلة وتماسك العالمة:

- "جدّي كان يحدثني عن هذه المنارة، يقول إنها وضعت على عتبها أسرار الليل الطويل، وأن كل حجر فيها يحجب همسة من حلم الأجداد".

تأمل عمر خطوط الخريطة، فإذا المنارة مرسومة بحلقات هندسية تلتف حول قاعدة أسطوانية، ويوم حُفر الأساس، غُرست في قلب الحجر إبرة مغناطيس تشير -لسبب غامض- إلى شأن فوق الفلك نفسه.

قال عبد الرحمن متنهدًا:

- "أي سحر هذا الذي يجمع الفلسفة والهندسة والفلك في وتر واحد؟"

أجابه يوسف دون أن يرفع عينه عن الخريطة:

- "السحر هنا ليس في البلور أو التعاويذ، بل في عقل الإنسان حين يقرر أن يحفظ المعرفة في قلب الحجر، ثم يخفيها عن أعين الملوك ليقرأها العابرون حين يموت الطغاة وتبقى الأسوار وحدها شاهدة على الذاكرة".

***

انطلقوا بهدوء، كل منهم يحمل جزءًا من نص أو أمل أو ريبة.

طريق المنارة لم يكن سهلاً: كان عليهم أن يعبروا ثلاثة أسواق متداخلة، حيث الجند يحاصرون باعة الكتب والأقلام ويحققون مع كل من يحمل دفاتر أو صحائف.

في طريقهم لمحوا فتى يتقافز فوق العتبات الصغيرة، يحمل طبق كعك ساخن، يغمز لعمر في سر، ويردد بيتًا شعريًا هامسًا:

"منارة العين تحفظ نفسها

في عيون جائعة إلى السر".

لم يفهم سر الغمزة حتى دنا من زاوية المنارة القديمة، فوجد الاقتراب منها في هذا الوقت عسيرًا. جنديان يقفان بثياب رسمية يحدثان امرأة في الخمسين تتسول أمام الباب، بينما يدور حول الموقع أطفال يقتاتون الخبز الجاف ويسخرون من قسوة الحراس بطريقتهم.

كان على المجموعة أن تبدو جزءًا من المارة، لا تشي وجوههم بحضورهم النادر: عمر بلباس الوراق الممزق، زينب تتحمل ثياب السّوقة، سلمى تداري وجهها تحت خمار الأرامل، وعبد الرحمن يعتمر قبعة صغيرة يخفي بها جبينه العالي وهو يجر عربة مملوءة بلفائف القماش.

في لحظة حاسمة، دوّى في الأفق صوت مؤذن الجامع الكبير، والأصوات تتردد في جنبات السوق، ازدحم الميدان بأبناء الحرف؛

انجذب الحراس نحو الصياح، واستغلت سلمى الجمع فأشارت بسرعة لبقية المجموعة بالتحرك نحو البوابة الجانبية للمنارة.

دخلوا من الباب الضيق الذي يخفيه عناقيد الغار، وتابعوا الخط الرملي كما هو مرسوم في الخريطة القديمة، حتى وصلوا إلى هواء أقدم من المدينة كلها، يسكنه عبير قديم من البخور وبقايا شموع لم يُعرف أصحابها.

***

داخل البرج، كان الجو أبهى من كل أسواق اليوم، وأشد توترًا من كل كوابيس الأمس. جدرانه مغطاة بالنقوش؛ عيون حجرية تراقب الداخلين، وكلمات بالخط المشرقي مجللة بكآبة الحكمة.

توقفت زينب عند ركن صغير محفور عليه لفظ:

"المسار يبدأ حيث تظن أن الماضي كذب، ولا تصل إلا حيث توقن أن الذكرى وحدها من ينقذ المستقبل".

سألت عمر متأملة:

– "هل تظن، إذا ذهبت المدينة كلها بالنار، أن قصة كهذه ستبقى حقًا للغد؟"

رد عمر وقد تردد طويلاً قبل أن ينطق:

– "لا أعرف... أحيانًا أكتب كمن يزرع شجرة في باطن قبو لا تهزه العواصف ولا ترويها الأمطار. أريد فقط أن يقرأ أحدهم ما كتبت، أن تصمد صفحة واحدة".

أجابت سلمى بانكسار شفيف:

- "كفاك أن تكتب... والصفحات ستعرف دربها إلى الذين يحتاجون الضوء أكثر من الماء".

***

تسلقوا درج المنارة الحجري، وكان على كل رفٍّ من رفوف السلم آثارُ كتبٍ منسية، شمعداناتٌ نحاسية، وكؤوسُ نبيذٍ قديم، وأقمشةٌ مطرزة بالكامل بأحرف الأندلس الأولى.

كلما صعدوا درجة، تورّمت أرواحهم بخليطٍ من الفزع من ملاقاة الحراس ورهبةِ الرمز الذي أوصلتهم إليه الأيام...

اندفعت زينب فجأة، وهمست للبقية وهي تمسك بقماش النافذة المنسية:

- "انظروا... علامة النجمة المزدوجة!"

كان جدّها قد علّمها أن سرَّ المنارة مخبوء تحت بصمة نجمةٍ مضاعفةٍ في النقوش، ترتبط بقاطعٍ مغناطيسيٍّ صغيرٍ يفتح القبو السري.

حين وجدت العلامة، دفعت بإبرةٍ كانت تحملها في ثنايا شعرها، فسمعت طقطقةً معدنيةً، فانفتحت قطعةٌ من الجدار، خرج منها درجٌ ضيقٌ يقود إلى غرفةٍ مظلمةٍ عميقة.

***

دخل الجميع في صمت النذور. هناك، اكتشفوا غرفةً صغيرةً مضيئةً بشعاع شمس يخترق ثقبًا بحجم إبهام طفل في الحائط المقابل. في وسط الغرفة رفٌّ منخفضٌ موسومٌ باسم ناسخٍ من القرن الأول للأندلس: "زرقاء اليمامة".

قال عبد الرحمن بدهشة طفل:

– "أكانت النساء ينسخن الكتب هنا؟"

أجاب يوسف من خلفه:

– "كلُّ من كان له سرٌّ أكبر من روحه، أخفى سرَّه في حجرٍ أعلى من عنق العسس؛ امرأةً أو رجلاً، لا بدَّ للعلم من يدٍ تمسكه حين يخذل الكبارَ الأقلام".

فتحت زينب مخبأ الكتب، فوجدت لفائف مرصوصة؛ منها خرائط فلكية عمرها مئة عام، ومنها رسائل أطباء أشهرهم ابن زهر وابن الجماعة، ومنها مخطوطٌ بخط ابن رشد لم يُسمع به منذ زمن.

انتاب المجموعةَ صمتٌ مهيب، شعورٌ يشبه لقاء الأحياء بظل الأسلاف، كأن في كل صفحةٍ عينًا تحدّق بك فتذكّرك بأنك الحجر الأخير على باب المدينة، وإذا هوى الحجر سقط السقف على الجميع.

***

فلاش باك (زينب مع جدها)

كانت ليلةَ صيفٍ، في البرج نفسه قبل أكثر من عشرة أعوام. كانت ذراعاها نحيلتين، وكان جدها يضع بينهما لفافةً صغيرةً

ويقول:

- "ربما يأتي يومٌ لا يجد فيه القلب من يقاوم معه. وقتئذٍ عليك أن تكتبي، حتى لو تيبّست الأصابع وانتُزعت من الدروب كلُّ نجمة".

تذكرت الدرس هكذا وهي تخرج من لفافة المنارة دفاترَ نسخها الجيل الأول من الفلكيين، كُتب عليها في الهامش بيتٌ عتيق:

"في المنـارة علمُنـا، وفي الحفـر أمـلُ دهـرٍ أنقـذناه مـن سـيف الممحاة".

***

لم يعد ثمة وقت، سمع عبد الرحمن وقعَ خطواتٍ على الدرج. ارتجف الجمع وهم يخبئون ما جمعوه في أكياس القماش، جزءًا تحت العباءة وجزءًا تحت السلم الحجري.

طرقت ظلالُ حذاءين بقوة على الحجارة: صوتٌ غليظٌ يزمجر في فناء المنارة:

- "أما زلتم تبحثون عن نجوم أجدادكم؟ هذه المدينة لا ظلال فيها إلا لسيف المنصور!"

أطلَّ جعفر الصقلبي من منصته، فرآهم عند الهبوط الأخير.

نظر عمر وزينب إليه بلا تردد. تابعهم برهةً، وكانت صورة المأساة كاملةً في عينيه: أطفال التاريخ، وورّاقون ونساءٌ حاملاتُ سرِّ الناجين.

قال جعفر، والشفقة تكاد تطغى على قسوته:

– "لو أفلتُّكم، خُنتُ سيدي... وإن أسقطتُكم، خنتُ نفسي. فمن يرأب صدع المدينة حين تذبل علامات المنارة؟"

صفُّ الدموع في عيني زينب كان شفرةً لم يُدرك جعفر حلَّها.

فاجأهم بحركةٍ لم تكن منتظرة:

– "اهربوا الليلة، لن يطاردكم أحد... لكن غدًا مصير قرطبة ليس في يد شاعر ولا عالم ولا سيف، بل في عقدة الحق التي اتخذناها أكذوبة".

اختفى جعفر في الدرج، وتركت كلماته في قلوب المجموعة صقيعًا وماءً ووهجًا مباغتًا...

***

خرج الجميع من المنارة، أنفاسهم تترجرج، والبقايا في أكمامهم أكثرُ وزنًا من الحياة نفسها. مشوا إلى مجلس يوسف من جديد، وكلُّ واحدٍ منهم يحمل قطعةً من ذاكرة المدينة، كلُّ واحدٍ منهم صار صفحةً عاشها أو حلمًا عاش ليكتبَه.

في آخر الليل، استدار عمر نحو المنارة وتأملها من بعيد، ثم دوّن في حاشية دفتره:

"في أي ليلةٍ

يمكن للمدينة أن تنهض من رمادها.

يكفي حجرٌ واحد،

يكفي رجلٌ يكتب امرأةً تداوي الحرف بحلمها،

أن نعبر المنارة ونخفي الأسرار في جفن الحكاية.

وغدًا... نصبح نحن علامةً جديدةً في السفر".

***

وهكذا انتهى الطريق عند علامة المنارة، لكن المدينة لم تبح بسرها كله، ولا النوم كان سهلاً على شارعٍ أو مساومةٍ أو قلبٍ.

كان هذا الفصل، بالنسبة لعمر وزينب وعبد الرحمن وسلمى ويوسف ومدينةٍ كاملة، علامةً مكتوبةً على رأس باب المقاومة - أن الحرف والحجر هما آخر الآهات التي تُنقذ المجد من المحو.

الفصل الحادي عشر

قلب الذهب المحروق

مع الغروب، حين يذوب الصبح في كأس الشفق الدموي فوق قرطبة، تأخذ الظلال في التمدد حتى تبتلع الساحات والأبراج، وتسقط أصداء التركيبة القديمة للمدينة في بقعة واحدة: ساحة الذهب. هنا يجتمع التاريخ المهزوم برهان الحاضر، وتنزف المدينة ألغازها فوق بلاطٍ تعرّق فيه عرقُ العمال، وتمتزج فيه دموع الأرامل برائحة العملات المسكوكة وخطى القادة المنتصرين والمهزومين على السواء.

كان عمر يسير على أطراف السوق، ملتصقًا بالجدران، يشعر بقسوة الحجر تحت كعبه، وكأن الأرض ذاتها تئن. في داخله بركانٌ من القلق والأسئلة، لكن تلك الليلة ليست ليلة كتاب أو مخطوطة: الليلةَ مواجهةُ الوجه بالوجه مع جعفر الصقلبي، ذئب المنصور وأذكى أعداء المقاومة، الذي اختار الساحة العتيقة ساحةً للصفقة الأخيرة.

كان الجو متخثرًا كدم المعارك القديمة. في الهواء رائحة عطن الذهب المحروق: كنز السوق حين هاجمه اللصوص، فتحرق نصفه واندفن نصفه الآخر في أساسات البيوت القديمة، فكأن المدينة تمشي على قبر المال والدم والذكريات معًا.

***

وقف عمر في ظل دكان النحاسين. في قلبه ألف سؤال: هل هي مكيدة لاصطياده أخيرًا؟

هـل جعفـر يتـأرجح حقًـا بـين العـدل والقسـوة... أم هـو مجـرد خادع بارع؟

كان الاتفـاق ألا يـأتي معـه أحـد، لكـن عبـق الخطـر كان شـديد الإغواء. أدار بصره حوله؛ فلم يرَ سوى بائع سكرٍ يرقب بحدة، وصبي يجمع قشـور الرمان من الأرض، وطيف امرأةٍ مسنةٍ تشد عباءتها على وجهها. على بُعـد خمسـين خطـوة، مـن تحـت أقـواس السـوق، بـرز جعفر... بنفس وقفته التي تشبه جنديًا تعب من الانضباط، لكنه لم يفقد عظمته بعد.

لم يحمل جعفر سيفه هذه المرة؛ جاء بثيابٍ سوداء بسيطة، في حزامه خنجر قديم، وعلى معصمه سلسلةٌ تلمع كدمعة قُدِّر لها أن تلمع في مسرح الحياة والقتل معًا.

وقف الرجلان بين الموت والضوء وتاريخ المدينة.

***

قال جعفر بصوتٍ أشبه قدمًا من سن الصخور:

"أنت لا تعرفني.

تظنني مجرد ظل في خندق المنصور.

لكـن في الليـل، يـا عمـر، كـم للجـرح مـن أصـابع، ولليـد الخيانـة ضمير..."

لم يجب عمر. أحس أن الكلمات كلمة واحدة خطيرة كاختيار الأب بين ولديه، وليس بينهما طريقٌ وسط.

أكمل جعفر ببطء:

"أتيتك لأعطيك فرصة.

من كان معي، ظل في النظام. ومن لم يكن معي، صار طعمًا للنسيان حتى قبل أن تمسه النار.

آخر عهدك بالدنيا ربما يكون الليلة، أو بداية عهد جديد إذا عرّفتني أين المخطوطات والرموز... أو من المخبر الحقيقي في ديوانكم".

هتف عمر في نفسه: "عالم مقلوب. تعقد الصفقات بدم الضحية أو بحق الخائن.

كيف يمكن للفقراء أن يدفعوا ثمنًا لذنب المدينة كلها؟"

قال بصوت هادئ، كمن يقاوم الريح العاصفة في صدره:

"لا أملك إلا الكلمة.

كل سر في المدينة يدخله مليون مفتاح، لكن قلب الحرف لا يفتحه إلا من عاش ليحرسه وليس ليبيعه".

تبادل جعفر نظرةً فيها شفقة حائرة واضطرام يتجلّى في عينيه، نصفهما قاسٍ، ونصفُهما مصبوغ بندبة جرح قديم.

***

مونولوج داخلي (جعفر):

"أي مدينة هذه تحتمل كل هذا؟

جعلني المنصور سياجًا حول الذهب، ثم حين بكى أبنائي بين يديَّ في محنةٍ قديمة، لم ينفعني لا الذهب ولا القوة... صار قلبي أضعف مما تصوروا، وصارت عيناي ترى أمهات النازحين في الشوارع أصدق من كذب القصائد".

هنا، أخرج جعفر من جيبه، ببطءٍ لا يخلو من الدراما، رسالة مكتوبة بخط مائل. ناولها عمر:

"اقرأ. خطُّ من يعرفك أكثر مما تعرف نفسك".

قرأ عمر:

"من يسقط قلبه في خردة الذهب لا يعرف خلاص المدينة.

من يحرق الكتب للسلطان، يسرق ميراث الأبناء.

ابحثوا عن بينيدور، هناك في حجرة المسكوكات المحروقة.

ستعرفون من يخونكم حقًا فقط حين تسقط قطرة ذهب فوق دمعة حبر".

***

لم يفهم عمر كل المعنى، لكن الكلمات أصابته بقشعريرة.

هل في الديوان من يبيع الأسرار للمنصور مقابل حفنة رماد أو حلمٍ بالسلطة؟

أيُّ سهم خيانة هذا؟ أم هي حيلة يخفي بها جعفر نيته عن العسس؟

في اللحظة نفسها، وقفت زينب في زاوية السوق تراقب المشهد من خلف سروالٍ فضفاضٍ وجلبابِ نساء الريف. جاءت متخفيةً بتدبيرٍ مشتركٍ مع يوسف، لم تلن رغبتها في حماية عمر ولا رغبتها في معرفة من يهدد مدينتهم من داخلها.

تذكرت تحذيرات جدها: "كل من ارتدى قناعًا في السوق، قد يخلع قلبه قبل أن يخلع قبعته".

***

قطع جعفر صمته بنبرة يمزج فيها الحزن بالتهديد:

"بإمكاننا إنهاء الأمر.

أهرب أنت ومن معك، لكنك ستترك المدينة كلها لمذبحة لا ترحم.

أو تبق، تغامر وتعتمد على أن بعض الحجارة لن تغدر بك.

تأكد أن من وشى بكم هو من يقرأ القرآن والشعر معًا.

في ديوانكم ضلال... دقق في عين كل من عاش ليكتب سرًا ولا ينتظر شمس النهار".

هنا توقف الوقت... لكنه توقف من النوع الذي يُمهّد لانفجار أو خلاص. مرّت في السوق لحظة قاسية، بعدها تعالى صياح عسكري من طرف السوق:

"اقبضوا على المتسلل! اقتلوه أو جيئوا به حيًّا!"

انـدفعت جمـوع الجنـود، وتفرقـت العبيـد والباعـة، فـاختلط الذهب المحروق بتراب السوق، وعرف الجميع أن اللعبة انقلبت.

***

خلال هذه الفوضى، اقترب جعفر من عمر، وهمس في أذنه:

"لا أريد موتك. أنا أعرف معنى العتمة.

إذا هربت... سلّم هذا المفتاح لعبد الرحمن.

إذا قاتلت، سلّم الحبر للحجر.

أنا سأكون باب رحمتي أو سيف خصمي... لك الخيار، أيها الوراق".

ثم دفع جعفر عمر إلى مخرج صغير خلف السوق، صافحه بقوة سريعة، فشعر عمر بنقش عميق فوق راحة يده:

نقش جمرة محفورة على معدن المفتاح، مرسومٌ عليه قصيدة قصيرة:

"كل ذهب يذوب.

كل كلمة باقية.

كل قلب بين النار والماء إما أن يطهره الهجر أو يحطمه الطمع".

***

خلال الفوضى، سمعت زينب صياح الجند تركض، فخافت أن ينكشف أمرهم. همست لنفسها:

"اليوم نغادر مسار النجاة، أو نبدأ مدونة النهاية".

تسللت عبر أزقة صغيرة، فوجدت عمر عند مفترق طرق حجرية، كان يحمل في عينيه جوهرتين من دموع، وشفتيه ترتجفان بسؤال القدر:

"ماذا قال لك جعفر؟ أهو معنا أم علينا؟"

رد عمر منكس الرأس:

"أخشى أنه لا يعرف نفسه... لم يعد بين البراءة والذنب إلا شعرة تمزقها الريح ساعة الغروب".

أعطى عمر المفتاح لعبد الرحمن بعد أن التقوا في الزقاق، وشرح لهم إشارات الرسالة. أعاد عبد الرحمن قراءة الكلمات، وأحس بأنها لسعت قلبه لا صفحته فحسب.

قال يوسف بحدة حكيم ذاق كل صنوف المحن:

"الخائن بيننا.

لكنني علمت الدرس:

ليس الذهب وحده من يحرق المدينة، بل قلوبنا إذا التصقت به ولم تختر نور الكلمة".

***

في تلك الليلة المتصدعة على حجر قرطبة، جلس الجمع على بُعد أقدام من منارة السوق، يتشممون عبق الخبز المحترق، وصدى الذهب المنصهر بداخله حكاية جميع الثوار:

أن لكل مدينة قلبًا إذا احترق الذهب يستعيده الورق، وإذا احترق الورق يرده الحجر، وإذا احترق الجميع... بكى التاريخ واعتذر الحبر للظل.

***

فلاش باك: جعفر – الحب القديم

شابة صغيرة من أصل أمازيغي، كانت أول وآخر امرأة أبكت جعفر في قصر المنصور. جاءته ليلة الحرق تهمس: "سنرحل عن القصر ونبني بيتًا للكتب". رفض حينها طمعًا في القوة؛ وحين عادت إليه بعد أعوام، وجدت قلبه قد نفد، وصوته بارد إلا على القصائد القديمة.

منذ تلك الليلة، عرف جعفر أن الذهب بلا حب... جمر بلا لهب.

***

جاء الفجر مرة أخرى باردًا، خافت المقام، وسقط على وجه قرطبة ستار رماد جديد.

أما المجموعة –عمر، زينب، عبد الرحمن، يوسف، سلمى– فجلسوا يقرأون مخطوطتهم الأخيرة في ضوء شمعة يتيمة، وقالوا:

"قد يحرق الطغاة السوق ألف مرة،
لكن لا يموت القلب إذا حمل جراح الذهب المحروق
وأصر الحبر أن يزرع فوق النار وردة جديدة".

وبين كفي عمر إحساس جديد:

أنه، حتى حين تخون المدينة نفسها أو تخونه، هناك في قلب الذهب المحروق حكاية لم تقل كلمتها الأخيرة... وأن كل من كتب منها سطرًا وأبقاه حيًا فقد بدأ ثورة لن تنطفئ ولو مات كل المنتظرين.

الفصل الثاني عشر

محادثة تحت الرماد

في أيام المدينة الكبرى، حين كان الرماد يغطي الأفق وتغدو الشمس أشبه بإشاعة قديمة عن النور، لم يعرف الناس كيف يدركون الفرق بين الصباح والمساء. تصبح الأصوات خافتة، والنظرات معلقة بسقف من ضباب الذاكرة، وتكون الأرواح كعلبة من رماد تحتفظ بشعلة صغيرة تأبى أن تخبو حتى حين تسرق الريح آخر أنفاس الجمر.

كان هذا هو حال قرطبة بعد ليلة الذهب المحروق: مدينة تلفظ الصمت مثل غبار مقبرة، مقاومة ما زالت تجرّ ظلها خلف خطوات مترددة بين الشجاعة والبقاء، وخونة... منهم من كشف وجهه ومنهم من بقي قناع رماد على وجوه الناس.

***

اجتمع عمر في بيت صغير من بيوت الحي الغربي، حيث احترقت واجهاته بالأمس، وكأن كل حجر فيه يحمل قصة قديمة عن الهدم والبناء والأحلام. كان معه يوسف وعبد الرحمن وسلمى وزينب.

حلّ عليهم الليل، وفي صدر كل منهم نكتة إحساس لا يشبه أخاه: الدهشة من نجاة مشكوكة، وشبهة الشك في الجميع، وخوف الحب الأخير من الجرح الذي يكاد لا يُشفى أبدًا.

في ركن الغرفة يتناثر ما تبقى من مخطوطات ودفاتر: بعضها مبلل بماء المطر وتسرب النار، وبعضها مكمم في صرة قماش، وبعضها قُرئت عليه "سورة الفاتحة" عند دفنه كي لا يُعثر عليه أحد.

وحدها زينب جلست تطالع بقعة السقف المنقوشة، ترسم في ذهنها مدار القمر عليها، وتعود بذاكرتها إلى أحاديث جدها عن الرجاء:

"يا زينب، كل خليفة وسلطان، إذا ماتا اجتمعا في القبر مع شاعر وفقيه وعبد فقير... اشتدي بالحلم حين يعجز الرجال، فالحلم آخر ثأر للضعفاء".

***

أحس عمر بالهواء وكأنه سميك، يلتصق عاليًا في صدره. راقب وجه أصدقائه وتردد في أن يقول ما يدور في عقله:

"ماذا لو أن ثورتنا هذه ولّدت رمادًا فقط؟ ألا نخدع المدينة بأمل أكبر مما تحتمل؟"

رد يوسف ببطء من ذاق كل صنوف النهاية:

- "هل تحسب يا بني أن الرماد لا يحمل بذرة؟ أحيانًا تكون المحادثة تحت الرماد هي الوحيدة الباقية للأجيال القادمة.

كتب مخطوطاتنا ستعود أو سترحل، أما الصوت الحقيقة فلا يمحى، طالما بقي واحد له شجاعة الصمت قبل الكلام".

عبد الرحمن أيضًا تداخل في الحديث، يحمل صوتًا أقسى من العادة:

- "كنت أظن أنني قوي حين أهرب من السقوط... ثم اكتشفت أن الركض يولد رمادًا جديدًا في صدري. لم نستمر في محاولة تلو الأخرى إذا كانت الخيانة من عقر الدار؟"

همست سلمى، وعيناها تلمعان على ضوء الشمعة المنكسرة:

- "نكتب رمادًا كي نشعل الكبريت القادم. المدينة تؤمن بهذه الدائرة يا عبد الرحمن؛ سقطنا كثيرًا، لكن كل جيل يورث حلمه لبعضه، يحفر اسمه على جدار أو قصيدة أو ضلع مكسور".

***

في تلك الليلة، أصر يوسف أن يعقد اجتماع الديوان في هذا البيت المنسي، متحديًا إشارات الخوف في الشوارع، ويجمع فيه مجلسًا خاصًا لم يقتصر على الحلفاء القدامى، بل دعا إليه أيضًا فتى صغيرًا اسمه سعيد؛ كان يتيمًا يجول على أبواب العلم منذ اشتدت الفاقة بالمدينة.

طفل في الحادية عشرة، براق الذكاء، يحتفظ في فمه بقايا تمر، وفي يده جريدة قديمة ممتلئة بكتابات ديوان الحكمة.

أجلسوا سعيدًا بينهم، وسأله يوسف بنبرة أب يضع أمل العمر كله في كأس طفل رملي:

- "لماذا تبحث عنا في هذا الليل الطويل؟"

أجاب الطفل بعينين فيهما ضوء شمس لم تصلها الحرب:

– "أبي مات في سجن المنصور، وأمي بكت حتى جفّت عيناها. قال لي جدي قبل أن يموت: من لم يجد خبزًا يجد قصيدة. جئت أسأل... هل ما يُكتب هنا حقًا ينقذ أحدًا، أم عليكم أن تتوقفوا عن الأحلام لأن السيوف أسرع من الدمع؟"

ساد الصمت لحظة، شعر عمر أن قلبه هوى بين ضلوعه كطائر أُطلق فجأة للريح. أما سلمى، فدفنت وجهها بين راحتيها وبكت للمرة الأولى علنًا.

***

في جوف الصمت الثقيل، هز يوسف رأسه وقال:

– "البذرة التي تُحرق ألف مرة تُنبت ألف جذر في أعمق مكان سري. يا بني، كل مدينة انطفأت شموعها فوق الأرض كانت تخبئ النار دهورًا تحت الرماد".

***

فلاش باك: يوسف – وعد الحريق الأول

سنوات بعيدة، فتى في الخامسة عشرة يراقب الحريق يأكل أعظم مكتبات قرطبة. أصوات الرجال تصرخ، والنساء ينهبن الكتب قبل اشتعال البوابة. ضحك الجنود وهم يرمون البراميل فوق الجرائد والصحف.

في تلك اللحظة، نظر يوسف إلى أبيه. رأى الدموع في عينيه، فقال له الأب:

- "احمل كرسيًّا صغيرًا، وجئني بقلم، وخبئ دمية أحفادك في صدر الورق. الكتب تموت، نعم... لكن الحكاية تظل تراوغ حِذارَ السيف. حين يكبر قلبك، أعطِ العالم شهادة النور ولو برقصة صبي على رماد الليل والبرد".

***

كان الحوار قد اتخذ طابع اعتراف جماعي. أقر عبد الرحمن بأنه شك في يوسف بالأمس، وأنه كان على وشك أن يكتب رسالة يحذر فيها من خطر التسلل الداخلي، لكنه خاف من أن يكون الخطر في داخله هو قبل أن يكون في صدور زملائه.

انطلقت من زينب نظرة متمردة فيها نداء المثل:

- "ليالي الرماد ولّدت سلالة من النساء لم تكن أبدًا أكثر عزيمة. جدتي قالت ذات يوم: تولد القصيدة أحيانًا في خدودنا لا في الورق، في ذمة الدمع لا في الحبر. حين تشتد النار على بيوتنا، نرتدي الندى حمايةً لنا ونحمله حتى يصبح عطرًا".

***

رن جرس في الباب الخلفي للبيت. ساد الذعر للحظة. دخل رجل خامل الجسد، رجل ضخم يلهث كمن أكل الطريق جريًا. سلّم الجميع رقعة كتب عليها:

"الرقيب على وشك أن يداهم حارة الزيتون. كثير من الأولاد مرعوبون في السراديب، تحركوا كأن تحتكم رماد وتحت الرماد برق".

ما كاد الجميع ينهض للإخلاء حتى أبي يوسف المغادرة قبل أن يختم الجلسة بحكمة لا تموت:

- "قيمة المحادثة تحت الرماد أن تعترفوا بخوفكم وبقوة قلبكم في آن واحد. الخوف وحده نار بلا دخان، والقوة وحدها دخان دون نار. لكن أن تخاف وتحمل شعلة الأمل ولو تحت أنقاض الكتب، هذه... هي القراءة الأولى لما بعد نهاية الزمن".

***

اتجه الجميع إلى المخرج الخلفي. انطلقت زينب وسعيد أولاً يعبران قوس الخرائب بين الأزقة. عبد الرحمن حمل أضعف المخطوطات، أما عمر فكان يسير بمحبرة خشبية قديمة، يحملها كأنه يحمل تركة عائلة غادرتها الحياة وبقيت الذكرى وحدها تحرس الذكاء.

خلفهم انفجرت صرخة الجنود في الشوارع القريبة. القلق رمى بظله الثقيل في القلوب إلا قلب يوسف. أصر الشيخ، وهو يودع البيت، أن يلوح للصبية ويهمس:

"إذا وجدتم الرماد يومًا يغطي كتابًا فلا تيأسوا؛ فقد كتبنا فيه شهادة الحياة.

والنار مهما علا صوتها، تظل بجذور الكلام وقلب الرمل عاجزةً عن دفن الحلم كاملاً".

***

مونولوج داخلي (عمر):

"الرماد لا رائحة له؛ لكنه ذاكرة الزمن كلها... حتى وجوهنا في الصباح القادم ستكون مثل مدينة بلا شفق أو أطفال بلا بيت. هل يمكن لمسيرة كاملة أن تحيا من حديث في عشاء بائس بين اللاجئين؟ هل يكفي اعتراف خوفنا لأن ننتصر؟... سأكتب. سأكتب حتى لو لم يقرأني أحد. سأكتب لأن كل كلمة نُكتبت تحت الرماد تعني أنني كنت حيًا هنا في القرن الذي قتل القصيدة ليزرع فيها قنديلاً من النار".

***

في الخارج، نزل الجمع إلى طريقهم الجديد. في نهاية الزقاق، أشرق الفجر قليلاً وركض الصبية إلى بيوت كانت ما تزال متمسكة بالحياة.

في تلك اللحظات، أدرك عمر أن انتصارهم لا يقاس بعدد الكتب المحفوظة ولا بعدد الهاربين، بل بقدرتهم على الكلام في عز الرماد، عندما يكون السيف أقوى من الذكرى، والكلمة أوهن من حجر مدبوغ... لكن "محادثة تحت الرماد" وحدها قادرة على حمل القلب زمنًا آخر.

وقف في العراء مع زينب، سألته بنبرة هامسة:

"هل تظن أن أحدًا سيقرأ كلامنا غدًا؟"

رد عمر:

"إذا بقي في الرماد حرف، فقد بقي في العالم أمل".

***

وبينما يغشى غبار الحريق أطراف المدينة، تولد ليلة أخرى من تحت الرماد... حوارات تدفئ القلوب المهشمة بالصدفة، وصوت طفل يردد بيتًا قديمًا عن الفجر الذي لا يموت بين أيدي الضعفاء ما دام بينهم من يتكلم، حتى بلغة الخوف، تحت الرماد.

الفصل الثالث عشر

أحجار الشطرنج

في ساحة صغيرة وراء دير سان جوليان، حيث تتعانق أغصان الزيتون مع الميرمية وتقطر الندى بين حجارة عتيقة، انبثق فجر من نوع آخر على قرطبة. لم يكن فجرًا مبتهجًا بقدر ما هو نفس متردد لمدينة أضناها الخوف، لكنها لم تنحنِ بعد.

الهواء ساكن يحمل من البعيد أصوات النواعي. في وسط الساحة، طاولة خشبية مربعة عليها رقعة شطرنج أكل الزمن سواد مربعاتها وبياضها. حولها جلس يوسف، عمر، سلمى، زينب، وعبد الرحمن، كأنهم جيش صغير أعياه السهر لكنه يتهيأ لمعركة ذهنية هي أقسى من أي سيف.

على الطاولة بضعة بيادق، ملك مهيب، وزير بائس الحواف، وفيل خجول الزاوية. الشطرنج ليس مجرد لعبة الليلة، بل مرآة لخطة المقاومة وسط دخان الخيانة وغبار الاحتضار.

***

قال يوسف بصوت متهالك:

"كل مدن الحصار تبدأ بلعبة من هذا النوع. السلطان يظن نفسه الملك والجنود بيادق، بينما نحن نحاول أن نثبت أحيانًا أن الفارس يساوي قصيدة... وأن الوزير قد يخون الملك لأن قلبه تعلق بحلم!"

رفعت سلمى ملكًا أبيض وسألته:

– "من منا الملك؟ ومن منا البيادق؟"

قال عمر وهو ينظر إلى يديها المتجعدتين فوق الوزير:

- "قد نكون جميعًا بيادق أحيانًا. لكن في هذه المدينة، من يملك الحبر هو وحده الذي يجرؤ على أن يضحي".

ضحكت زينب بخفة ممزوجة بالغصة:

- "وما فائدة التضحية إذا كان النقاش حول الطاولة حُوِّل إلى سيوف حقيقية تلوح عند كل منعطف؟ في الشطرنج، نهاجم وننتصر أو نخسر. في هذه المدينة... نخسر، ونكتب، ثم ننهض من جديد".

***

بدت عينا يوسف زائغتين في البعيد، كأنه يرى رقعة أكبر من رقعتهم بكثير:

- "في الشطرنج الحقيقي يا بنية، لا أحد ينتصر وحده. قد تظن أنك أنقذت الملك، لكن إذا نزعت روح الفارس أو حطمت ظهر الفيل... تسقط إمبراطورية كاملة".

أشار إلى عبد الرحمن الذي بدا ذهنه اليوم مشتتًا ومتوترًا بصورة غير معهودة:

- "كنتَ يومًا شخصًا لا يهاب الهزيمة؛ ماذا جرى اليوم؟"

هز عبد الرحمن رأسه وهو ينظر في رقعة الخشب:

- "لا أدري. في كل خطوة أشعر أني أترك خلفي قطعة من ذاتي. كلما مضيت في الدرب خسرت إيمانًا بقدرتنا على النجاة... كل فخ

يكشف مزيدًا من الخونة، وكل خائن عرفناه سلخ من روحي ثقة في المقاومة توازي هزيمة ملك على الرقعة".

صمت الكل لحظة، ثم وضع يوسف كفه فوق يده:

- "لكننا لم نلعب بعد كل أحجارنا".

***

فوق سطح مجاور، جلس عصفور رمادي يراقب الساحة. ترددت ظلال خيل في الجوار، وقالت الريح في سكونها نغمة حنين إلى الأيام التي كان فيها الأطفال يملؤون الحواري بلعب الشطرنج الحقيقي في الساحات، لا بأرواحهم فوق رق المعارك.

انطلقت سلمى في سرد ذكرى، فلاش باك ممتد بصوت رخيم...

***

فلاش باك: ليلة الشطرنج الأولى

"مرة في بيت عائلتي كان أبي يدربني وأخوتي على الشطرنج في ليال بلا كهرباء. قال لنا: "سوف تواجهون يا أولادي ملوكًا كثيرين... بعضهم طيب، وبعضهم قاسٍ. لاتخافوا البيادق ولا تترددوا في التضحية بالفارس من أجل فكرة!"

وفي ليلة شباطية، أحرقت النار لوحتنا، وبدلنا القطع بقطع من طوب الطين. في الصباح قام أبي وكتب على الجدار: في لعبة الحياة لن تكوني ملكة إذا خفتِ من أن تموتي مرة من أجل البيادق".

انتهى الفلاش باك

***

أراد يوسف أن يناقش خطة ديوان الحكمة للمرحلة القادمة:

– "لدينا خريطة جديدة تثبت أن جعفر الصقلبي يخطط لتهجير أهل السوق الأعلى وإحراق مكتبة الفقهاء الكبرى نهاية الأسبوع.

أخبار من شبكة الظلال تقول إن خائنًا في صفنا لم يُقبض عليه بعد، ينقل إلى جعفر مكان كل ملجأ في المدينة مقابل وعد بالنجاة له ولأسرته.

نحن الآن أمام مفترق: إما أن نخاطر بنقل أكبر كمية من المخطوطات وإحكام خطة هروب، أو أن نثبت الفخ ونستخدم الشطرنج الحقيقي... نجازف بأن نظهر وجود

كتب زائفة في أحد المخازن ونراقب من يسارع بإبلاغ العسس".

نظر عمر إلى الخريطة: كانت المسافة بين ملجئهم الدير وبين سوق النحاسيين لا تتجاوز كيلومترين، لكن بينهما ثلاث نقاط حراسة دائمة، وتنتشر العيون حتى في أفران الخبز.

قال عمر ساخرًا:

– "حتى إذا انتصر الوراقون في معركة الخفاء، يكفي أن يشتري صبي يتيم ثمرتين في السوق حتى تفضحنا عيون الجوع والخوف".

قال يوسف بثبات:

- "المهـم أن نبـقي المـلك واقفًـا حـتى النهايـة. إذا اسـتطعنا أن نخدع العسس مرة أخيرة، سنحصل بحركتنا التالية على رقعة جديدة للنجاة".

***

بدا القلق على زينب:

- "كأننا نلعب شطرنجًا ضد الوقت والموت والحماقة معًا.

لكن في هذه الرقعة هناك شاعر لم يحتمل أن يكون سوى ملك مهزوم، وامرأة يمكنها التضحية بالفيل من أجل أن تحفظ طفلاً من السبي".

قالت سلمى:

- "الفـرق أن لا أحـد يعـرف أي قطعـة سـتفوز الليـلة. المدينـة أحيانًا تميل للبيادق الصغيرة؛ الفقراء والفتيات المنسيات... هؤلاء هم قلب كل مملكة.

لو حكمت البيادق رقعة الشطرنج، لصنعوا مدينة تليق بسماء حرة".

ضحك عبد الرحمن بمرارة:

- "أقوى خصم ينتظرك... هو مرآتك يا صديقي".

***

هنا دخل رسول صغير -لؤلؤة ديوان الحكمة- يحمل رسالة مرقومة بالحبر البنفسجي، علامة رهبة المعارك.

فتح يوسف الرسالة وقرأ بسرعة:

"تحرك جعفر.

سيضع عيونًا في السوق الأعلى بعد الغروب.

تم رصد امرأة ترسل رسائل عبر بائع الكعك... لم يعرفها أحد.

خطة العسس: خداع البيادق بدس فجوة في صف الفيلة".

تهامس الجمع حول معنى هذه الكلمات. أقسم عبد الرحمن أنه رأى البارحة، عند مدخل الحي، امرأة بثوب أبيض تسحب أختها الصغرى بهلع، وتصادف نفس البائع المذكور في الرسالة.

للحظة، بدت الشكوك تتجه هنا وهناك... من منا الخائن؟

ولكن يوسف نهض واقفًا:

- "لن ننجو إذا أصبح الكل متهمًا بالجملة".

***

قرروا جميعًا مشروع الفخ:

أن يوهموا الحراس بوجود دفاتر نادرة في حمام الدير القديم، بينما تحت الأرض تنقل الزوايا الأقرب إلى السوق دفاتر العلم الحقيقية.

تم توزيع الأدوار: عمر يراقب الدير، زينب تنظم الأطفال

خارج السوق في حلقات قراءة لإلهاء الجنود، سلمى تُشرف على تهريب النسخ المصغرة باستخدام علب النحاس، عبد الرحمن يزوّر خريطة الهروب ويراقب وجوه الغرباء.

انطلقت الليلة. الكل صار بيادق على رقعة مدينة تقاتل للبقاء، وللمرة الأولى منذ زمن بعيد شعر عمر بقوة حميمة:

أن اللعبة أبهى حين تكون محسومة بالمخاطرة... وأن الشطرنج الحقيقي لا يفوز فيه الملك، بل الذي يُضحى لأجل الحلم، والرواة العظام هم من يرتكبون الهزيمة بشرف على رقعة الحقيقة.

***

مونولوج داخلي (زينب):

"أكره الشطرنج أحيانًا؛ لعبة أُهينت فيها الملكات في صحف الرجال.

لكني الليلة فهمت أن الفارق الحقيقي في صاحب القلب، لا ترتيب القطع.

أنا هنا لأسحب العالم كله إلى رقعة بلا ذنب، لا مهزوم ولا منصور... فقط وعد القصيدة في أن الصباح مهما طال

الليل يشرق من مكان في القلب لم يعرفه بعد أي سلطان..."

***

وبينما الليل يفترش المدينة، وتتهامس الهمسات بين الديار، يقترب عبد الرحمن من حمام الدير حسب الخطة.

هناك، يرى خيال امرأة بثوب أبيض يعانق ظل باب كبير، تقترب منه ثم تهرب في لحظة عبر الزحام، تاركة خلفها قطعة من

وشاح منسوج عليه بيت شعر فريد... يعرفه عبد الرحمن فورًا... كان بيت الأغنية التي تحفظها أمه وتغنيها في طفولته:

"أنا البيادق،

أنا كل ملك سقط،

ومن عطري يُولد الندى في كف العشاق".

أدرك عبد الرحمن أن الخيانة أحيانًا صداقة قديمة ترجو النجاة، أو روح ضائعة في بحر أشد من رقعة الشطرنج، رقعة الحياة.

***

يصطخب السوق بالهتاف، تصفر الحناجر وتنطوي الدكاكين.

يدخل جعفر برفقة فرقة من العسس، يقتحم الحمام ومعه ورقة تشير إلى مكان "دفاتر العلماء" الزائفة.

وفي لحظة حاسمة، بينما ينشغل الجميع، ينقل عمر وزينب وسلمى وعبد الرحمن العشرات من لفائف الكتب الحقيقية عبر دهليز حجري متصل بالخان القديم خلف السوق.

***

تهب الريح في الخارج، يختلط عطر الميموزا بندى الصباح.

في أركان ملجئهم الجديد، يقلب يوسف ملك الشطرنج بين أنامله:

– "ربحت الليلة رقعة جديدة... ربما لأسبوع، ربما ليوم واحد.

لكـن البيـادق الصـغيرة أنقـذت المـلك وأهـدت للمدينـة جـولة أخرى في لعبة الشرف الممنوع".

ابتسم عمر، دمعة وتساؤل في عينه:

– "هـل تعلـم... نحـن جميعًـا مـلك خـاسر في شـطرنج الليـالي الطويلة.

لكننـا... نبـقى نكتـب حـتى ترتجـف الرقعـة وتبـكي الـريح عـلى المدينة".

***

هنـا انتـهى الليـل... والمدينـة أمضـت أول فجـوة حقيقيـة في حصـار المـلك إلى جـولة جديـدة مـن الصـراع، جـولة صـعب فيهـا أن تعرف من سيحمل الكأس ومن سيشعل النار... لكن الحق في قلب البيادق أن تروي كل شيء: حتى الهزيمة، حتى النهاية، حتى انتصار قلب صغير ضد حافة الرقعة.

وفي الأفق، تتهيأ قرطبة لجولة من النور العنيف، حيث الشطرنج لعبة لمن يملكون شجاعة أن يكونوا حجارة صغيرة في يد التاريخ.

الفصل الرابع عشر

وتد في الظل

في الليالي التي يقبض فيها الخوف على مفاصل حارات المدينة، وتصبح جدران قرطبة متراصّة فوق أعمار الناس وأجسادهم وأصواتهم، وتمنع حتى الدمعة من التساقط دون أن تكتب عليها عينا الجاسوس تقريرًا، يكون الظل هو الوطن الحقيقي للقلوب الصامدة.

جاء ذلك الليل وكأن ذئاب التاريخ انطلقت من أقفاص أكلها الصدأ. كان يوسف يجيل بصره في وجوه رفاقه حين اجتمعوا في قبو خان الخزافين الجديد، بعد مناورات هربتهم الشطرنجية ومسارات الطرقات المنسية. الجميع مدرك أن دائرة الشك أضيق من أن تستثني أحدًا، وأن الخيانة أصبحت احتمالاً قاتلاً، والنجاة قائمة على وتد هش في ليل طويل.

جلس عمر القرفصاء عند جدار مضرج بأثر دخان التحريق، يمرر سبابته على رسم طفل قضى عمره منذ أجيال، لكنه دفع بالوهم حياة جديدة في خطوط فحم قديم: حصان، نخلة، حرف ناقص.

تجثو زينب فوق السجادة البالية، عيناها تراقبان عبد الرحمن في زاوية الظلال المقابلة، ووجه سلمى نصف مضاء بنور مصباح مهتز، كأنه شاهد على قرار لم يُحسم بعد.

كان صوت يوسف وسط العتمة غليظًا رخيمًا، فيه حنو العجائز وقوة من عرف شروخ الرجال ومخاوف النساء:

"في أزمنتنا، كان يُقال إن من يزرع وتدًا في ظل مدينة، يظن أنه وجد أمانه. لكن الوتد في الظل يُطوى في الليل، وقد يُقلع إذا مر فوقه لفيف الريح أو زحف نحوه هامس الوشاية".

***

ليست المحنة الآن في فكرة الهروب أو الموت، بل في معرفة: من نُسلِّم له ظهرنا دون أن نخشى خنجرًا؟

من يبيت فينا خائفًا، ولصالح من يشتغل هذا الخوف؟

تكلم عبد الرحمن أخيرًا، صوته متعب متقطع:

"كنت كل حياتي شاعرًا بالفقد... أمي ماتت في الطرقات قبل عشرة أعوام لأن خادمًا وشى بها لقاء سرقة رغيف. لم أعرف مذاق الأمان. الآن، حتى أصدقائي أراني أغبطهم على نومهم القصير، وأتعجب إن مر الليل دون أن أشك في ظل وأتعقبه".

رد يوسف بهدوء:

"الخيانة ليست دائمًا قسوة، أحيانًا تكون ضعفًا مهزوزًا يداريه الحب أو الأمل أو الجوع. ليس كل من باعنا يكرهنا، بعضهم فقط أرهقته الوحشة وبدأ يفاوض قدره، مثل وتد

صغير علق في ظل دوار الوقت".

***

قالت سلمى، ببطء امرأة ظلّت عمرها تحفر بئرها في صخور الرجال:

"الظل جدار ضعيف لكنه عزاء الضعفاء... أنا أعذر حتى الخونة يا يوسف؛ ليس لأنهم طيبين بل لأن العالم أكثر قسوة مما تحتمل نفوس المدينة.

في كل بيت نصف أمين ونصف جبان، في كل حارة أخت كتمت سر أخيها عن الجند وأخرى أفشت سر أختها كراهية لا نجاة".

رفع عمر رأسه فجأة، وفي عينيه دمع أحرج السكون:

"أنا... لا أريد أن أهتم. أريد أن أركض فقط خلف آخر حلم نقله أبي إلى صدري؛ أن نكتب ما يليق بنا ولو أحرقوا كل كلمة...

لكن، في هذا المكان الذي لا يسمع أحد فيه وقع الأقدام على التراب، كيف أفرق بين ظل الصديق وظل الخائن؟"

***

فلاش باك – عمر واكتشاف أول خيانة:

كان عمر في الخامسة عشرة حين وشى ابن جاره بأبيه، وقال للجنود إن الرجل يخفي دفاتر الشعر في سقيفة السلم. قُبض على الأب ليلة شتوية دامية، وعاد الطفل الجار في نفس المساء يبكي مع عمر ويعتذر: "أخاف على أمي". جفف عمر دموع الغلام بكم قميصه، ثم راح يتساءل بقية عمره:

أيمكن للخوف أن يوسع المكان للخيانة حتى بين مقتسمي الخبز؟

انتهى الفلاش باك

***

في هذه اللحظة، دخل صغير يرتعد، يحمل ورقة سرية مشبعة بالخوف، قال:

"هذه من رجل يُدعى سلطان، كان يختبئ معكم الأمس ويقول إنه أخطأ مرة أخيرة..."

قرأ يوسف الورقة بصوت عال ونبرة مخنوقة:

"سيُداهم الخزافون الليلة. الخائن بينهم.

أعطى جعفر كلمة سر جديدة. الحذر، الحذر... ومن تورط اسمه ماجد بن قاضي السوق".

ساد السكون، نظرة بين سلمى وعبد الرحمن وعمر. تغيرت الوجوه جميعها في لحظة واحدة: تردد ناري، قلق مدفون، خيوط حدس مرعبة.

تهامست المجموعة:

– "ماجد؟ مستحيل. هو الذي دلّنا على أول النفق!

– أوَليس هو من أحضر بيض الفداء لعريسات السوق؟

– مستحيل...

– بل ممكن...

– كل شيء ممكن حين تغدو الظلال أنقى من القلوب".

***

كان لا بد إذن من خطة: الانتقال السريع بعد حرق كل أثر في منزل الخزافين، إخفاء أعظم الدفاتر في جدار مضاعف خلف محراب الدير.

في طريقهم خرج عبد الرحمن من صمته وهمس:

"كلما أعدت النظر في بيادق رقعة الشطرنج، أعلم أن أضعفنا يومًا قد يصير أقوى الغادرين إذا احتاج إلى الحياة".

قال يوسف:

"لا تدن من الظل بحلم خالص. ابنِه هناك، لكن لا تسقف أمانك بنوافذ الوهم. وتدك في الليل يثبت خطوة... لا روحًا".

***

في آخر النفق المؤدي إلى حارة عويرات القديمة، اصطدموا بسيدة مسنة تحمل تاجًا من خرق وخضاب. عرفت يوسف من النظرة الأولى، دنت منه وهمست في أذنه:

"حين كانت السماء ترسل أمطارها في ليالي العصيان، كنا نكتب قصائدنا فوق الأبنية ونرسم بيتًا سريًا خلف كل عمود، لنضلل الجند والعسس".

رفعت له قطعة فخار منقوشًا فوقها آية منسوبة إلى الإمام علي:

"أخوك أخوك من لا تملك منه بديلاً".

قالت سلمى:

"ولكن كيف نحمل قلوبنا إذا صار الحبيب هو الواشي؟"

***

وصلوا إلى الدير المنشود ليلاً ورائحة الاحتراق ما زالت تلثم عباءاتهم. صعدوا إلى صومعة قديمة وراءها شجرة صبر عتيقة، دفنوا تحتها الدفاتر وكتبوا بحبر مذاب:

"من قرأ هذا من بعدنا، فليتق الله فينا وفي حلمنا... بعض الكلمات تستحق عار العزلة، وبعض الخيانة لا يغسلها إلا دمع يذوب كالحبر في مياه الليل".

جلس يوسف في الظلام وقال:

"كل وتد في ظل قابل للاقتلاع... إلا وتد الحلم المجنون، وحده يثبت، وحده ينتصر؛ ولو في عيون فقراء يسرقون ساعة نومهم ليذكّروا أطفالهم أن الشرف لا يُشترى حتى بكلمة نجاة".

مونولوج أخير لعمر:

"أخاف من نفسي مثلما أخاف من الناس. أخاف أن أُنجب خيانة في سجلاتي من دون وعي، أخاف أن أرحل عن قلمي بجرح لا يُشفى.

لكن... ما دام لكل ليلة ظل، ولكل وتد احتمال، سأنتظر بصبر أن تكشف المدينة وجهها ذات فجر، أخيرًا، بلا رعب".

***

في تلك الليلة، لم ينم أحد:

عبد الرحمن يترصد الباب ككلب صيد عجوز فقد الثقة في كل الغرباء.

زينب تكتب على الجدار الخارجي:

"كل ظل خائن في ليل قرطبة الطويل... إلا وميض الحلم إذا عبر".

وسلمى تهمس في العتمة:

"خيانة واحدة تكفي لتقوينا... لنتعلم أن وتد الروح إنما يُغرس لا في التراب، بل في دم الألم والتسامح".

أما يوسف فقد غاب بصره عن الجدران ونهض يرسم في الهواء علامة الصليب والهلال، علامة مدينة لن يهزمها إلا فتيل الخوف من الداخل.

***

وفي أقصى ليلة من ليالي الحزن الكبرى، حين لم يبقَ إلا جمر الكلام ثم وهج الدموع، كانت المدينة تدور كرقصة وتد في شراشف الظلال:

من يسقط يغفر، من يقوم ينسى، ومن ثبت في الأرض بما خطته روحه صار يومًا شاهدًا فوق القبر القديم أنه مر هنا، مرة، ومعه قلمه وألمه، وترك خلفه وتدًا في الظل لم يقله أحد.

الفصل الخامس عشر

مجلس الأسرار

أشرقت شمس جديدة على قرطبة، لكنها شمس لم تمنح دفئها للمدينة؛ بدت وكأن كل إشعاع خافق يُلقى أولاً على سيوف الجنود، ثم يهتز فوق خوذاتهم مجرد بقية ضوء من زمن آخر، زمن لم تعد فيه الشمس تعني الحلم، بل إشعارًا ببدء يوم جديد من القهر والتيه.

على مدخل قصر.الخلافة انتصبت أعمدة الرخام متعرقة بندى الخوف، وتراصت حراسات المنصور فوق السلالم المزخرفة كما تتراص ذكريات القتلى فوق قصاصات الورق التي ملأها الوراقون دعاء لم يُسمَع.

في تلك الصبيحة، كان عمر يُدفع بين جند شداد كأنهم خلقوا من صخر، أيديهم أصفاد من الفولاذ وعيونهم جمرات من نخبوية العسس. بين كل خطوة والأخرى، يتردد في صدره إيقاع مكتوم:

"لست خائفًا... بل متعب.

الكتابة هاهنا أثقل من السلاسل، والحق حملته، والآن أحمله".

في الممرات الداخلية، كان صدى الخطى فوق البلاط كالترنيمة، وأروقة القصر تحجب النور وتملأ الهواء برائحة البخور المختلطة بضغائن الرؤوس المهزومة. وصل إلى قاعة طويلة تحت قبة من الفضة والذهب.

هناك وقف "مجلس الأسرار": ساحة الانكسار والحقيقة، الأصلية والوهمية معًا.

جلس المنصور وسط بلاطه، شامخًا كطود، عاري القلب إلا من الخوف الدفين، ذلك الخوف الذي يتقن صاحبه تمويهه بجبروت الطغاة. عن يمينه جعفر الصقلبي، وأمامه لفائف من أوراق المشبوهين، وعلى الأطراف وجوه مسؤولين ورجال دين، منهم من اغتنت عيناه بحبر النفاق، ومنهم من أبلى الزمن أضلاعه حتى ذاب في أكمام العباءات القديمة.

***

وُضع عمر أمام المنصور. برق عينا المنصور، وفاحت منهما دهشة متململة: هل هذا الشاب هو كابوس السلطان؟

هل هذا الطفل الناسخ من يعجز فحول حرسه عن إخماد ذكرى الكتب التي تبعث كالعشب من جديد؟

قال المنصور، بصوت تستقر تحته قوة هادئة تعوي في نبرة المكتفي بذاته:

"يصلني أنك ابن يوسف الناسخ، حفيد قرفة القلم المغموس في الحبر القديم. كتابك يا عمر صار سكينًا في خاصرة الأمن! أخبرني... ما الذي تريدونه من المقاومة؟"

أجاب عمر، يطرق عيني المنصور بجرأة هشة:

"سيدي، لسنا سوى حراس الذاكرة. من يكتب لا يريد أكثر من نفس لا يغرق في الغياب. الحرية، يا مولاي، ليست عدوًا للملك بل وسادته الأكثر صدقًا".

تبادل الرجال نظرة سريعة. تقدم جعفر، حاد الذكاء لا يغفل ولا يغفر، وقال:

"ليس هناك حرية بلا نظام. حين نظن القلم أعدل من السيف، نخسر المدينة قبل أن نخسر الكتب!

قل لي... هل أنت يا عمر حكيم أم حالم؟"

ابتسم عمر بغصة كالكهرباء:

"الحالم يا سيدي يرى في اليقظة احتجاجًا على الواقع، أما الحكيم فيكتب خطط الفجر حتى بين طعنات الليل. أنا خليطهما؛ أخاف الموت، لكن كل قلب لم يُطعن بقلم لا يعيش إلا بشبه حياة".

هنا ارتفع غليان المجلس، تنافرت التعليقات بين التمني بالرحمة والتذمر بالبطش.

***

فلاش باك: المنصور – طفل في ظلال الخوف

كان محمد بن أبي عامر طفلاً في عتمة قرى الجنوب الفقيرة، عاش وجد الفاقة وأبًا صلبًا بالكاد يمنحه لحظات حنان... وتحت وطأة الطموح والجوع تعلم أن لا أمان إلا لمن يصنع الخوف سيفًا، وأن من يملك السيف يسرق القلم إلى حين.

في أحد الليالي، حين سطا النهب على بيتهم، رأى أمه تحرق دفاتر أخيه الأكبر كيلا يراها عسس الأمويين، وقالت: "لو عرفوا باسمك يا بني، ذُبح الجميع".

منذ تلك الليلة، لم يطمئن للقصيدة ولا للمحبرة.

نهاية الفلاش باك

***

قال المنصور لعمر، وقد صلَّب وجهه قناع الجليد:

"يجرّب كل ثائر في التاريخ أن ينتصر، لكن الجيوش الكبيرة تكسر. كل قلم في النهاية. عبثًا ترسمون أملكم في البيوت المهجورة، فالنار لا تحفظ إلا رمادًا.

أعطني كلمة تقنعني أن الكتب أهم من الملك".

رد عمر، صوته يرتجف فلا يعرف أحد أهو من الرهبة أم الإرادة:

"لأن المُلك يموت إذا نسي العالم معنى نفسه، ولأن كل دقيقة بلا حُلم تُصيّر المملكة صحراء على صورة الروح الظمأى. أما الكتاب... فيعيش فوق الدهر ولو بعد عشر ملوك".

هنا صرخ أحد رجال الدين:

"لكن تلك الكتب فتنة! هل تراوغ الفقه وترفع الفلسفة؟ أي قرطبة تركتم للنار!"

تدخل جعفر، مقلِّبًا مفتاحه بحزن لا يفوته العارف:

"الخيانة يا مولاي أن نمحو كل حكاية لا تروق لنا، أن نكتب سيرة العدل بقلم خائف... والخائف لا عدل عنده قط".

***

ألقى المنصور على الطاولة جمجمة منحوتة من عاج، قال:

"كان جدُّ جدّي يحمل هذه معه -تذكار الأيام السوداء- مرددًا دائمًا: إن العقول إن لم تُرهَب تحولت إلى هياكل مبعثرة في الأفواه".

شعر عمر حينها أن الرماد في حلقه صار حجرًا يصعب اختناقه. خاطب نفسه:

"أيُّ زمن هذا الذي يُحاكَم فيه الحلم كطعنة، وتُقصّ رأس الحكاية خوفًا من أن تُرفرف في الشوارع؟"

زفر المنصور قائلاً:

"اعرض عليه صفقة يا جعفر:

ينقذ نفسه، يشي بأصحابه، ويعود لكُتّاب القصر.بمرتب ودفء، أو...".

رمقه جعفر بعين قاصية ثم التفت إلى عمر، وصوته أقرب للشفقة منه للتهديد:

"اختر شهادتك الليلة قد تُنهي أو تُنشئ خرائط قادمة فوق هذه الطاولة".

***

في الخارج، غاصت قرطبة في تراب انتظار شمس لن تشرق، وبين أنقاض الساحة، كانت زينب وسلمى وعبد الرحمن يترقبون خبر عمر. قلب زينب على حد السكين، كل نفس ارتعاش دعاء أو نذير بكاء.

همست سلمى:

"في الشرق، إذا عُلِّقت الشهادة على رقبة أحدهم، أصبح بطلاً أو خائنًا في الوقت نفسه. كلاهما يدفن اسمه في سرداب قلب أم موجوعة!"

عبد الرحمن يعصر ورق شجر بين أصابعه:

"كل يد تكتب، كل كف تنقذ. نحن ننتظر ولا نملك غير الأمنيات".

***

عاد عمر إلى ذاته، وقف أمام المنصور وقال ببطولة الضعفاء:

"سيدي، أحب الحياة، لكني أحب الحلم أكثر. إذا مت، أعدك أنني سأحيا في ذاكرة كل بيت نجا منه كتاب، وكل أم لم تُحرق رسائلها".

لحظة صمت عظيمة؛ لم يكن في قاعة الأسرار سوى زفير الريح. قال المنصور بصوت بارد:

"احفظوه في زنزانة الرأي حتى أقرر... أستطيع اليوم أن أختار بين النسيان وإشعال مدينة أخرى.

فالملك، مهما تعلّق بالقوة، يظل أضعف من الحلم حين تموت أجنحة الليل ذات صباح".

***

في زنزانة باردة، جلس عمر يتأمل جدرانها المنقوشة بأسماء النزلاء قبله:

"كل أسرار العالم، في النهاية، تُكتب في الظل أو في الظلمات...
ويبقى الحلم، مهما اختنق، شمسًا صغيرة تحت الرماد".

كان يجهل مصيره، لكنه علم أن الليلة قد كتبت فيه ذروة تاريخ مقاومة مدينة، وأن جلاده ربما كان، في ركن آخر من القلب، طفلاً خائفًا لا يبحث سوى عن خلاص نفسه من عتمة كانت أقسى من سيف المنصور ذاته.

***

وفي الخارج، تجمع جمع صغير عند طرف سوق الحدادين: وجوه نساء وأطفال وعجائز، يحملون بين أيديهم ورقًا كُتب عليه كل واحد:

"يوم يُحاكم الحلم في مجلس السر
تبكي المدينة وردة.
لكن من يمتلك القلم الأخير
يبقى حيًّا في نسغ الدهر
وفي حكمة الحجارة".

وهكذا خرج عمر من مجلس الأسرار، لم يُسَلَّم رأسه ولم يُسلِّم أصحابه... لكنه علم أن الذكرى أعلى من السيف، وأن مداد الخوف حين يُكتب بإخلاص، يصبح وترًا يبني أعظم مدن العالم، ولو بقيت في الذاكرة فقط.

الفصل السادس عشر

ليل الأوراق

حين يدلف الليل إلى قرطبة، لا تدخل الظلمة دفعة واحدة، بل يتضاعف قتام الأركان رويدًا، تُطفأ نافذة تلو أخرى، وتخبو بواعث الأسواق، ويتحول صوت المدينة إلى همس نساء يُذكِّرن أطفالهن بأن المقبلة ليست صباحًا، بل جولة جديدة من العتمة المتواطئة مع كل سيف وأمنية خائبة.

لكن في أحد الأحياء السفلى، وتحت بيت قديم يقاوم شروخ الأسى، تجمع رجال ونساء من ديوان الحكمة، وطالبهم الوحيد إنقاذ الأوراق التي، إن غرقت تلك الليلة في مجاري المياه أو غارات العسس، فلن يبقى من الأندلس سوى ذكريات مشوشة وأسماء مقطوعة في هواء النسيان.

***

اجتمع يوسف، وسلمى، وزينب، وعبد الرحمن، مع ثلاثة رجال من أعمدة المقاومة: الفقيه العجوز ابن السراج، و"سيف الدين" الذي كان يومًا جنديًا في جيش المنصور ثم صار كاتب الأشعار السرية، وفاطمة التي يُشبَّه صبرها بخرزات تسبيح لم تُفرَط منها إلا دمعة على شهيد أو قصيدة مخنوقة.

كانت الدقائق ثقيلة، كل واحد يراجع في ذهنه سبب وجوده هنا، من أين جاء القلق، وما الذي بقي من محباته ما يكفي لأن يخاطر الليلة من أجل دفاتر جرداء وحروف مأزومة بين المطر والحريق.

جلسوا على الأرض، ومدت فاطمة بين جموعهم كومة من لفائف الأوراق والدفاتر:

"هذه أوراق النجاة. لو وجدها عسس جعفر غدًا، لأكلت المدينة خمسين عامًا من الظلمة! علينا تهريبها الليلة عبر نفق قديم يشق حي الدباغين ثم يقود إلى بيت عند تخوم بساتين الزيتون خارج الأسوار... هناك، سيحملها شيخ أعمى إلى كهف الرهبان".

قال ابن السراج، صوته أبطأ من العادة، لكنه أكثر حكمة وغصة:

"في المدن المحتضِرة، أوراق قليلة أقوى من ألف مرسوم سلطاني. كل من في القصر اليوم سيصير ظلاً غدًا، إلا الحبر المبلل بدم الشهداء... هو وحده مفتاح الغد".

***

أشاحت زينب بعينيها، تراقب ارتعاشة يد سلمى وهي تجمع قصائدها الأخيرة وتخيطها في كم عباءتها السوداء، كمن تكنز شعلة ليوم بارد لا وصايا فيه إلا البكاء المكتوم.

مونولوج زينب:

"لو ضاعت هذه الأوراق، لن تبقى لي هوية غير صورة جدي عند النجوم. كتبت هنا ما لن أتزوج من دونه، وما لن تراه ابنتي إلا إذا زففتها في ليل آخر آمن. الليلة كل كتاب كجلد، كل ورقة كعظم، كل نقطة كقطرة من دمي".

وقف سيف الدين، عيناه متقدتان بما بين الشجاعة والحسرة:

"أنا الذي قتل أول فتى في الحي خطأً وكتب وصية بالحبر النازف! كنت خائفًا من الضوء، فوجدت نفسي شاعر الظلام الوحيد الذي يفكر بأن الخوف نفسه قد يحرسنا هذه الليلة".

***

اقترب يوسف من عمر وجذبه بهدوء إلى زاوية السرداب إلى جانب مصباح باهت يكاد ينطفئ. جلس معه أرضًا ووضع يده على كتفه:

"الليلة أصعب يا ولدي من كل الليالي. العسس في الحارة يمشون مثل كلاب جاعت شهورًا.

أعرفك خائفًا، وأعرفك أشجع من أن تتراجع.

اسمع... وخذ هذه الخريطة: في منتصف الطريق ستجد علامة كف محفورة على الجدار... هذه إشارة دخول المغارة القديمة فوق قناة المياه.

إن حوصرت ولا أمل، فارمِ الأوراق في السيل ولا تندم... ربما تحملها المياه إلى زمن يجد فيه الأجيال من الحرف ما لم يذقه زمنهم..".

كان عمر يومها قد بلغ حد الإرهاق. أمسكت سلمى بيده وقبَّلتها كأم تبارك ابنها قبل موت أو خلود:

"اكتب عند الخوف، لا برغم الخوف؛ فالليل لا ينتصر إلا على الذين أغلقوا المخيال قبل أبواب البيوت".

***

في الخارج، أصوات الكلاب تذبح أعصاب المدينة. اكتظ الطريق بصفارات العسكريين ووهج مشاعلهم المتقاطع مع ظلال أشجار النارنج.

ببطء خرجت المجموعة متسللة من سرداب البيت. أخذ كل واحد منهم دفترًا أو رزمة أوراق، وخلف كل خطوة رنَّت في رُقية قرطبة كلمة وداع لا تُقال إلا في تشييع موتى الثورات.

أسوأ المخاوف عند عمر لم يكن في عسس أو خيانة، بل أن تتحول المدينة إلى كتاب يُقلَّب دون أن يقرأه أحد، أو أن تُدفن الأوراق في الطين لتصبح سمادًا للقرون القادمة، دون أن يطالعها عاشق أو ثائر أو طفلة ترجو الحكايات بعد الأحزان.

***

فلاش باك: عبد الرحمن

ذات ليلة بعيدة، كان أبوه راوي القصص في فناء البيت العتيق. جلس فوق سجادة منبتة الأطراف، حوّل المخاوف إلى مغامرات بين قراصنة وشرفاء ومساكين وصنّاع.

قال له مرة:

"كل رواية عظيمة تبدأ بورقة ضائعة ينقذها طفل خائف.

إذا كتبناها، حيينا فوق الدهر. إذا أضعناها، متنا موتتين: واحدة في البلد، وواحدة في الكتاب الذي لم يكتمل أبدًا".

نهاية الفلاش باك

***

اقتربـوا مـن النقطـة الأخطـر: زقـاق يفضـي إلى مخـرج الجسـر الحجري، وإلى اليسار، كومة رمل كبيرة خلفتها فيضانات الشتاء. هنا المكان الذي رُصد فيه العسس من قبل، وحيث وقعت أول وشاية منذ أيام فقط كلفت الديوان مصرع اثنين من أوفى رجاله.

كان لا بد من مهارة الخفاء وطول الأنفاس.

قالت زينب، وهي تشد طرف عباءتها بحسم الأنثى التي كبرت على عجل:

"لا بأس لو وجد الموت في الطرف الآخر من الدرب، فأنا أقبل أن أضيع إذا لم يستطع أحد بعدنا أن يقرأ الكواكب كما علمناها، أو يستذكر وصايا الأمهات في مناديل الدموع".

خشَّن عبد الرحمن صوته:

"يا رفاق، أأحد بيننا يهتم باسمه أكثر من كتابه؟ من يخاف على جسده فليعد، ومن يخاف أن يموت بلا اسم فليحمل الورق ولا ينظر خلفه".

كانت الإجابة صمتًا متواطئًا: الجميع نزع أسماءه في تلك الليلة وارتدى قناعًا من شبق البقاء للحروف قبل اللحم.

***

في الطريق، سمعوا صوتين متداخلين: أحدهما دعاء كهل في بناء مجاور، والثاني صوت بكاء مكتوم لطفل صغير جائع. رفَّت في عيون المجموعة دمعة لم تسقط، كأنما المدينة كلها، ليلتها، تنتظر كلمة شجاعة يكتبها أحدهم على عجل، حتى ولو بحبر البكاء لا الكتابة.

عبروا النقطة الخطر، ثم كانوا في ظلام أعمق من قبل، لكنه أليف يعرف قلوبهم منذ أول ليل أضناهم فيه عشق الحلم وخوف الحكاية.

***

في نهاية النفق، قبل علامة الكف، توقف الزمن للحظة: عبد الرحمن يجد في نفسه رعشة؛ يوسف يتهجى أسماء أصدقائه الشهداء، سلمى ترتل بيتًا قديمًا:

"والليل أبهى من صباح قاهر

إذ صار صدر الحرف مأوى هارب"

تقدمت زينب نحو علامة الكف، حركت حجرًا صغيرًا فتنفس جدار الزمان وبان أمامهم سرداب يفضي.إلى بطن مغارة كبيرة. هناك استقبلهم شيخ أعمى قاسى الانتظار حتى صار وجهه قطعة من ليل المدينة.

قال الشيخ بصوت محتقن:

"أشهد أن لا مدينة إلا تذهب وتبقى أوراقها؛ فادخلوا بكتبكم ولا تبكوا على البيوت، ابكوا على الذكرى فوق جفن الريح إن كُتبت يومًا على غبار أرضكم".

***

جلسوا جميعًا في المغارة، والدفاتر فوق حجارة البرد. أشعلوا نارًا صغيرة تسوح فوقها حكايا الزمان. سلمى تقرأ قصيدة من ماريا الكبرى، عبد الرحمن يكتب على رق السيال بمسمار الذكرى، يوسف يخط طريقهم بعد الفجر، وزينب تتخيل الضياء يمشط عيون الأطفال يومًا بعد يوم.

مونولوج أخير (عمر) في قلب المغارة:

"لا معنى للخوف ونحن جُلُّنا أوراق في الماء، رخوة في وجع، لكن متماسكة في ذكرى لا تتكسر ما دام لها أمانة الحلم في الجبل.

ذات صباح ستنفض الريح الرماد عن الحروف، ويمر من هنا سائح أو فقيه أو عابر قوافل يطالع كتابًا خرج من تحت ماء الخوف إلى هواء الوجد.

بهذا... تحيا المدينة، أو تموت، أو تشتعل من جديد".

***

هكذا انتهى "ليل الأوراق"، لا بنصر عظيم ولا بهزيمة كاملة، بل بفجر يُكتب بمحبرة واحدة أنوار أمل جديد في قلب مغارة، وعهد بأن

الحكاية لا تنتهي، ما دامت الأوراق لا تذوب إلا لتعود شتلات في عقول لا تقهرها الحصون، ولا السيوف، ولا حتى مرارة النسيان.

الفصل السابع عشر

بوابة الغرباء

ما من أحد عرف "بوابة الغرباء" إلا ومر عليها مطاردًا أو حائرًا في منتصف ليل عصي، فالمدينة العتيقة لم تترك مأوى للهارب إلا عتمة بواباتها الخلفية، تلك العتبات التي سقط فوقها المطر دمًا أحيانًا وحنينًا أحيانًا أخرى، وظل فيها الليل يحمل أنفاس السالمين كما يحمل في كل ليلة صدى من عبر ولم يعد.

تناهت خطوات عمر، وزينب، وعبد الرحمن، وسلمى، ويوسف إلى بوابة في أطراف قرطبة، تكاد تتلظى تعبًا بين آثار حقول الزيتون وسور المدينة المنسي، هناك حيث الزمان أبطأ، والريح أكثر حكمة، والوجوه وجوه غرباء... لا أحد يعرف أصلهم، ولا يحتاج أحد إلى أن يسأل.

وقف جمع الديوان على عتبة البوابة، ومع كل واحد منهم أثر الكتابة على جبينه: يد عمر ترتجف قليلاً وهو يمسك بكيس المخطوطات، زينب تواري قلقها في نظراتها التي ودَّعت النخيل والنوافذ العالية، عبد الرحمن يكرر بينه وبين نفسه دعاء الرهبان الفقراء، وسلمى تضع يدها على قلبها كما لو كانت تحفظ في صدرها بيتًا من الشعر نجيًا، أما يوسف فكان يحدق في صمت البوابة، كأنه يرى خلفها الروح التي فقدها قديمًا.

على طرف السهل خيمة مهملة، نارها خافتة، يجلس حولها ثلاثة رجال بملامح باهتة، كسالى الحركة، تلمع عيونهم بحذر يجمع

الماضي بالفقر رنينًا وعتبة أمل. مع اقتراب المسافرين، نهض أحد الرجال:

كان طويلاً، أجرد الذراعين، عيناه بلون الأرض اليابسة، شفته العليا يزينها جرح قديم كتذكار معركة نسيها الجميع.

قال، وصوته بين الترحيب والإنذار:

"هذه بوابة من يختار أن يكون له اسم جديد، أو لا يريد أن يتذكر اسمه القديم... أنتم منا أم من الذين يبحثون عنهم؟"

تقدم يوسف، ويده تمسك بمسبحة من خشب الزيتون:

"نحن من الذين فقدوا الحلم، ولا يملكون رفاهية الولاء إلا للنجاة أو لأثر قصيدة، جئنا نلتمس دفء الخبز ومأوى الليل، لن نطيل".

ضحك الرجل الثاني، كان أقصر قامة، أغمض عينيه كحكيم أنهكته ليالي النفي:

"الزيتون لا يسأل عن دم الطيور فيه... ولا الليل عن دمعة تبخرت مع الفجر. هلموا إلى النار... فوق هذا الرماد خبز لا يسألك عن هويتك، ودفء للحلم إن جفاك الحلفاء والخصوم معًا".

***

جلس الجمع حول النار، تبادلوا الخبز، أكلوا بصمت، جددوا نار الحكاية دون أن يتنفس أحد لفظة أخطارهم ولا هوياتهم، كأن بينهم اتفاقًا عرفيًا بأن سرد الذات أخطر من نجاة البدن.

بدأت سلمى الحديث أولاً، وجهها مشبع بتجاعيد النهايات:

"كنّا كتّابًا في الليل، وصار الحرف عندنا جواز عبور لا يمكن استعارته أو إعارته. صرنا نحمل الكتب كمن يمسك بطفل مهدد.

أرادوا أن يسلبونا الكتابة والخبز معًا، فركضنا حتى تعب الحنين فينا".

قال الرجل الثالث، ضاحك العينين، بعينين لوزيتين مشققتين بالعذاب:

"أنا اسمي عبد العليم، فررت من شتاء المغرب الأقصى. هناك ينتقل الناس من جحيم إلى جحيم، لم يفتح لنا الطريق سوى سماء واحدة فوق الأندلس، في كل مدينة الفقراء غرباء... والغرباء يحفظون أسماءهم في رائحة الخبز وحكايات الدروب، لا في دفتر السلطان".

***

وقعت على السهرة نغمة ذكريات لم يعرفها الجمع من قبل: لم يكن عبد العليم وحده، قربه امرأة اسمها مريم، سوداء العينين من بلاد الساحل البعيد، ثم شاب أمازيغي اسمه هشام يحمل عودًا ويعزف ألحانًا تذكر بالجبل والريح وأمومة البحر.

تبادلت الأسماء، فكانت أول مرة لكل واحد من رجال الديوان أن يسمع نفسه كغريب لا يحتاج لأن يُقسم إلا على الصمت، أو يروي قصة قد لا يصدقها إلا الغريب الآخر.

قالت مريم:

"أنا جئت من البحر... كان لي زوج يعلّم الرياضيات في فاس، ثم غرق في موجة لم تُرجع لي إلا دمية ابننا وخاتم زواجنا. حملتهما وجئت. لم أعد أبكي عليه، فأنا الآن أشتاق لمن فات، أبكيهم جميعًا: القتلى والأحياء، الأوطان والأحلام. نحن يا إخوتي لم يبقَ لنا إلا بعضنا.

الغرباء وحدهم يعرفون قيمة أن تجد قلبًا أو كتابًا لا يسألك عن اسمك السابق".

***

اشتدت النار قليلاً. غنّى هشام، رقّ صوته وتبعته ريح الليل:

"سافرنا في ليل طويل...

وجهنا نحو الشرق وماؤنا قليل

بكينا على فراق الحبيب وسكون القوافل...

وصرنا، مثل فجر بلا ضوء، غير مرئيين للمدائن".

مونولوج داخلي (عمر):

"ما أعجب أن يكون خلاصنا في حضن غرباء أشدُّ رقة من دم الأقارب. الليلة وجدت نفسي بين موتى أعرفهم في شبه أحلام لم أقدّر لقلبي أن يحملها. صرت مقبولاً لا باسم أبي ولا بكتاب أمي. أنا فقط رجل ينجو مرة واحدة أخرى قبل أن تموت المكتبة التي في صدره".

***

فلاش باك: يوسف – ليالي نفيه:

يتذكر يوسف تلك الليلة حين نبذه أقاربه، اتهموه بأنه حائم وراء فتنة الحبر، حاكمه القاضي في سوق العامة ولم يجد دليلاً إلا قلمه القديم الذي خبأ فيه خاتم أمه المنفية.

في خيمة في العراء، بين غرباء من المغرب والسودان وسواحل البحر، عاد يوسف إنسانًا صغيرًا بلا هوية، لكنه يستقبل ليلة أخرى دون أن يحمل جرح الخيانة.

كل شيء تغير منذ تلك الليلة، عرف أن المنفيين هم وحدهم من يُحسن الحب ولا يسأل عن الثمن.

نهاية الفلاش باك

***

عندما هدأت الحكايات، أخرجت زينب خرائط جدها الفلكية، نشرتها أمام عبد العليم الذي أبدى ذكاءً من طراز قديم. تعجب من الدقة، سألها عن مدارات النجوم وحركة الكواكب، فتبادلا همهمات لغة أجزاءها علم وأجزاءها شوق للمعنى.

همس عبد العليم:

"في طفولتي قالوا لي إن الأرض ستدور بنا إن نسينا أسماءنا، وإن كل مدينة تملك فلكها الخاص، الفقراء يكونون دائمًا الغرباء الذين يشعلون في السماء نجمة مخفية... مرسومة فقط لأجلهم".

قالت زينب، عيناها تشعان برقٍّ مبهم:

"جدتي كانت تقول لي دومًا: من يعرف مكان النجم الغريب لا يضيع أبدًا مهما تغيرت المدن.

ربما نحن الليلة، فوق بوابة الغرباء، أقرب إلى سمتنا الحقيقي من أي وقت مضى".

***

ارتفع النسيم، وانطفأت النار تقريبًا فلم يبق سوى الجمرات.

لاحظ عبد الرحمن ظلالاً تتحرك عند حافة البستان: هناك مجموعة رحّل عبروا توًا من الجنوب، يحملون صحافًا من قمح ودواة مبتهجة تحت إبط زعيمهم.

تحلقوا جميعًا ووزعوا القمح بالتساوي على كل واحد، حتى صار للجميع لقيمات وسطر من الحكاية يبقى إذا عبر الرقيب أو باغت الصبح الجميع.

قال يوسف:

"انظروا يا أصدقائي... هؤلاء الغرباء هم الذين كانوا يصونون مكتبات فاس في زمن الجدب، يشعلونها بالفجر حين تخبو الشموع في القصور.

قطرة حبر نجت من النار مع واحد منهم تساوي ذهب قرطبة كله".

وافقته سلمى، أومأت برأسها وكتبت على صفحة من لفائها المخبأ:

"عندما نطرد من ديارنا، نربح العالم كأغنية مشتركة
تمازج فيها لغات الأم بالمنافي
كل من فقد هويته في المدن
وجد غربته دليلاً للعودة المعجزة".

***

في العمق، فوق تلة الزيتون، كان نور جد ضعيف للمدينة يلاحق الليل. وقف الجميع شبه صامتين حول النار، يغني هشام مقطعًا آخر:

"ليس في الدنيا وطن
سوى كتف الغريب،
والحبقة القديمة،
وصفحة سجلها الليل...
لمن يصل فجرًا إلى مدينة لا يعرفها أحد...
ولا يخاف فيها أحد".

مونولوج زينب:

"أدركت الليلة لماذا كانت أمي تبكي عند سماع الحكايات عن أجداد جاءوا من فارس أو المغرب أو الشام.

نحن أبناء بلد القلوب الرحّل،
بلد الكتاب الذي لا جنسية له إلا الحلم،
بلد النبوءة التي قالت إن كل من جاور النار تقاسم الضوء،

وأن أوراق العابرين فوق بوابة الغرباء...
تعود مارقة في سفرك الأخير،
وتعود مطمئنة كما يجب أن تعود".

***

انقضى الليل على هدوء لم يعرفوه من أيام. راح الجميع إلى خيمهم البسيطة. عندما أتى أول خيط للفجر، صاحت مريم فجأة:

"هناك نجم جديد في طريقنا... انظروا هناك!"

نظروا إلى الأفق فإذا بنجمة بيضاء وحدها فوق الظلام، علامة ظهرها البغتة للغرباء لا للملوك... علامة لمن يحملون الحبر لا الذهب.

ابتسم الجميع وكأنهم نقشوا عهدهم في قلب السماء،
وهمس عمر وهو يفتح صفحة جديدة في الكراسة:
"في بوابة الغرباء...
يصير المنفى وطنًا
وتصير المدينة كتابًا للكل
ولا يكون البرد موتًا أبدًا،
بل بداية لدفء الحكاية الأخيرة".

الفصل الثامن عشر

حفرة الزمن

ذات فجرٍ هادئ على سفوح قرطبة، حين تمددت ظلال الزيتون على شكل أذرع طويلة بين الصباح والعتَمة، أفاقت زينب أول واحدة في معسكر الغرباء. لم تجد في نومها سوى حلم غامض: نار تحت الأرض وأصوات رجالية تتجادل فوق خرائط فلكية، وبينهم ظلّ لرجل يحمل شعلة في يمناه ويدسّ في يدها لفافة كتب عليها اسمه بخط جدها القديم. حين خرجت من الخيمة، وجدت عبد العليم يجلس قرب الرماد، ينحت عصا غليظة على مهل، وقرابة تلهب النهار تلوح في الأفق.

استفاق باقي الرفاق على رائحة خبز مريم، ضحكات هشام بعوده، وصياح يوسف يسابق النسمات: "المدينة اليوم أقرب للمعجزة، لن ننام على سرقتنا القادمة للنهار!"

أما عمر، فكان يجاهد طنين عقله: هل اليقظة أكثر إخافة من الحلم؟ أيُنتظر المرء فجرًا جديدًا... أم يركض في ظلاله بحثًا عن معجزة مضادة للزمن المنكسر؟

***

حين انتهوا من الطعام، جلس الجميع عند حدود الحقول حيث البئر القديمة، بطنها غائم وسحرها ندي. كان عبد العليم يقلب في كفه خاتمًا نحاسيًا قديمًا وجدته مريم بين الحصى قبل ليالٍ.

قال وهو يتأمل النقش: "هذا الخاتم لا يُصنع إلا في قرطبة... فوقه شيفرة أشبه بتوقيع نجم. قديم، أقدم من آخر الملوك".

اقتربت زينب تنظر في فوهة البئر، فإذا بخطوط قديمة محفورة على الجدار: دوائر حول نقطة، رموز كوكبية متجاورة، ثم جملة بالخط الكوفي الأوسط:

"من مر من هنا، انفتح له باب الزمان... من خبأ سرّه مات مرتين".

ارتجف قلب عبد الرحمن، حاول أن يقتبس شجاعة الغرباء: "أليس هذا ما يكتبه النساخ في هوامش السر، صلة بين فجر وفجر، ونبوءة خلفها مفتاح الهاربين من الظلم؟"

اقترب يوسف والمداد في أصابعه يتقاطر عزيمة: "في الحفر أسرار بقدر ما في القصور من خيانة. أظن أنه الليلة لا بد أن نقرأ مجاهل البئر... فربما خبأت المدينة مثلما تسقط المخطوطات في ظلامها الأصيل".

***

لم يعد الأمر تحديًا. صار تحديق الجميع ينسج حلبة روحية: ماذا لو خبأ الزمان آخر كنز للمدينة تحت أقدام من لا يملكون إلا قصاصة أمل؟

اتحدت الهمسات وخاضت الأيدي حفرة البئر. في عمق بعيد، تعثرت زينب بصندوق فضي له قفل صدئ ومطرزة على غطائه زهرة النسرين، وعليه اسم: "ابن الفَرَضي".

ارتجفت مريم؛ كانت قد سمعت في طفولتها أن ابن الفَرَضي .أحد العلماء المنسيين .قد أخفى شيئًا من علمه في أعوام الهدم الأولى. فتح يوسف القفل العتيق، فإذا بداخله لفافة رق وعنوانها: "يوميات حفرة الزمن، 365 يومًا في سرداب العلماء الضائعين".

***

كتبت يد عمر:

"أيّ زمن هذا الذي يخفي بين ثنياته خريطة للغد؟ أي مصير يضمه الصندوق، وأي أمل سيرشدنا إن عرفناه؟"

قرأ الجمع من اللفافة:

"الحفرة، سنة كذا.

بلغ العسس السوق، وسئمنا الدوران في الليالي. قررنا أن نقدّس الخسارة طريقًا للذكريات... دفنّا هنا كل ما لا يراه السلطان: دَواة، بيضة حجرية تحمل رسم سماء، ورقًا منمنمًا عليه رسم فلكي للسنة القادمة، وقلب شاعر لم يصدقه أحد".

"يا من تجد هذا الصندوق...

اصنع من خسارتك قبسًا للغد

ولا تدفن تحت التراب إلا يأسك،

أما العلم، فدعه في النور إن وسعك النور".

أغمض يوسف عينيه، قائلاً:

"هذه حفرة من أهدى جسده للحلم... رسالة الأجداد أن لكل بئر فم شمس...

العلم لا يُتلف. هو يسافر. يتبدد في الهباء أحيانًا، لكنه دومًا يعود".

مونولوج داخلي (زينب):

"وجدت رأسي يدور بين الأسطورة والتاريخ. كل حكاية قديمة عن مكتبة أندلسية عتيقة صارت حلمًا بالعودة.

هل تملك حفرة الزمن أن تعيد إلينا ما أخذته الأعوام؟ أم تعطي للمنفيين كتاب حياة لا يجرؤ على ختمه أحد؟"

***

تحت دفء نار النهار، جلس الجمع يخرج من الصندوق قطعًا صغيرة:

مغزل من عاج على رأسه رسم طائر هرّب أيام الجوع خبزًا لأطفال المدينة،

وورقة من الورق البردي مكتوب عليها كلمات مبهمة عن سر جامعي النجوم،

وصلاة مخبأة بين رسمتين: "يا رب النجاة لمن لا يُذكر اسمه إلا صدفة بين الريح والدخان".

بدت مريم متلعثمة بدهشة:

"في غربتي الأولى تمنيت أن تكتب أمي رسالة تهديني ما نسيت. اليوم، رسائل الغرباء تخبئ فيها مواعيدنا للرجعة.

لو ضاعت الكتب، تبقى الأسرار بين صدفات الأيام...

لا أحد يعرف. ربما رأيت اسمي يومًا في دعاء مغسول بماء هذه الحفرة!"

***

سطا على الحديث خشوع لم يعرفه الجمع حتى في أحلك الليالي.

ثم استرسلت سلمى فجأة:

"كتب فقيه عاشق منذ قرن أن الحفر تُدفن فيها جثث الحروب، لكن تُحفظ فوقها النبوءات.

تعلمت أن الأمواج ترد إلى البحر كل ما سقط منه، حتى إن ضاعت الأوراق في الطين، يجد الناجون يومًا صفحة يتيمة عليها أثر قبلة أو دمعة أو كلمة أمل".

***

فلاش باك: عبد الرحمن - المعلم المنسي

كان عبد الرحمن في الثانية عشرة حين سمع من معلم عجوز عن "حفرة الزمن" التي خبأ فيها النساخ الأوائل خرائط الكنوز ووصايا الهاربين من جحيم الحرب. في أحد أيام القحط، باشر الشيخ بدعوة سرية:

"إذا جاع قلبك يا بني، حفّر في الذاكرة أولاً. الزمن يبتلع الجسد... لا يبتلع الأسرار".

تذكر عبد الرحمن الدرس تلك الليلة، وأيقن أن جوع المدينة هو جوع للمعنى الخالد.

***

عاد يوسف يقرأ باللفافة، فإذا فيها مقطع عن حكمة أصيلة:

"المدينة حين تنهار لا تموت، بل تعلن انكسارها ورودًا منسية بين حجارة الطرق.

علمت أن السيف أقسى، لكن الصبر أقوى.

كل فقد في الدهر شحنة خبأها الله لصباح جديد".

أنهى يوسف القراءة وألقى بعينيه على عمر:

"لست أدري، يا بني، أأنت الناسخ أم المنسوخ الجديد؟

كل سلالة جديدة تعبر حفرة زمنها وتترك في أعماقها نقطة ضوء تنتظر من يقرأها بلا إذعان ولا انحناء".

دوّن عمر جملة أخيرة على هامش اللفافة:

"الحياة أكبر من فتنة النسيان... والحرف فوق قبره لا يموت، بل ينبت خبزًا وذكرى وحلمًا".

***

اقترب الفجر، أعاد الجميع الأشياء إلى الصندوق، دفنوه بحرص، ورسخوا فوقه حجرًا نقش فيه عبد العليم توقيعه بلغة الأجداد:

"من وجد حجر الغرباء، قرأ فجر المدينة القديمة".

انتهى الاجتماع على وعد جديد:

أن كل خسارة ليست قبرًا، بل بذرة،

وكل حفرة زمن ليست نهاية، بل أماكن بدأ منها العابرون مزمار الرحيل أو تقاسيم الرجعة.

رفع الجميع أكفهم في ضوء النهار الجديد، غنّى هشام:

"الحفر يا رفاق ليست دائمًا مدافن،

بعضها معيار الشرف أو قبلة الأمل...

وما وجدناه الليلة تحت تراب المدينة

لم يكن قبرًا... بل منارة لمن سيلحقوننا يومًا،

ولمن سيكتبون من جديد إذ يخبو كلام الملوك وينبعث حلم الورق!"

الفصل التاسع عشر

طيور الليل

في مساءٍ سُكِب رماده على شوارع قرطبة كأنه غبار معركة انتهت ولم يُلقِ أحد فيها الجثث بعد، انطلقت المجموعة الصغيرة من حماة الكتاب والعلم -عمر وزينب وعبد الرحمن وسلمى ويوسف- قرب السهول التي يقطعها الريح كحوار أبكم بين الزيتون والسنابل، فرأوا قافلة من الطيور السود، كبيرة وخفيفة، تطوف في دوائر عريضة فوق السهل.

كان الهواء يحمل أصواتًا غريبة: نشيج الريح، نعيق الغربان، ثم بين الحين والآخر، صهيل حصان بعيد يوشك أن يخترق الحقول صوب المدينة.

لم يعرف عمر إن كانت الطيور نذير شر أم مجيء هادٍ من عالم آخر. همس في نفسه:

"طيور الليل لا تغني... بل تحوم فوق الأسرار، شاهدة على خسارتنا وميلادنا معًا".

لم يكن قد نام جيدًا منذ ليالٍ طويلة، وصارت يقظته تحت القناديل القصيرة برفقة الغرباء كابوسًا يتكوم بالسهاد مع صفحة كل كتاب ممنوع.

***

وقف الجميع عند جذع شجرة ميتة وسط الحقل. وضع يوسف يده على لحاء الشجر المتشقق وقال:

"حين تقسو الحقول على الهاربين، تظل الشجرة الجافة مأوى للمنبوذين.

في زماني الأول خبأني هذا الجذع، أنا وأمي، من جند الأمير.

اختبأنا في تجويفه حتى جاء فجر كاد يُعدم القدر فيه من برد الجوع.

حين يطير طائر ليله الطويل، لا يعود لوكر واحد مرتين، بل يمضي. لفجر جديد بلا خريطة، فهل نحن مثل هذه الطيور؟"

سكت الجميع. انسحب الضوء عن وجوههم وأزهارهم. تحول الزمن من حس إلى وهم بين اليقين والاضطراب.

قال عبد الرحمن بصوت متوتر:

"كل منفي في هذه الأرض يُقصى. في عز الليل، يحلم أن يكون له عش في مدينة عادلة.

نحن، مهما انقسمنا في الحكاية، أضحينا طيور الليل؛ بصيرة بالمخاوف، عاجزة عن النوم... تراقب الشمس من بعيد ولا تجرؤ على لمسها".

***

هنا تقدمت سلمى صوب مجموعة من الصخور الصغيرة، تعيد خمارها فوق رأسها كجواد الليل، جلست تسمع نقيق الضفادع البعيدة، وقالت:

"في طفولتي كانت أمي تقول:

في القطعان السوداء يسكن القدر،
ومن رأى طائر ليل في الشرفات لم يمت جوعًا ولا قهرًا،
في أعينهم لغة غامضة من أمل وخوف وبكاء وأغان بلا لحن".
قاطعها هشام، أحد الغرباء الجدد:
"كان أبي إذا اشتد عليه الأرق يفر من البيت ليطارد طيور الليل.
يقول: الذين يكرهون العتمة لا يمتلكون إلا أمل الطيور.
طيور الليل تعلمهم الرحمة.
ولذا نحن هنا: بلا طريق، بلا بيت، بلا وضوح... نصدق الأشباح لأننا صرنا أشباح آمال منسية".

***

اجتازت زينب بعينيها الحقل الواسع فوق السهل، تسجل على ظهر دفاترها المفتوحة رسمة طائر جريح بجانب رمز القمر.
همست: "هذه العلامات ليست علم الفلك فقط يا رفاق،
كل طائر ليل هنا إشارة لمدينة في داخلي
مذعورة، لكنها حية تشاغب اليأس بصدى المدى".
قال عمر:
"يا زينب، كم مرة اعتقدنا أن الرماد نهاية الكتب؟
ها نحن نعيش، بل نستأنف الطيران،
نحمل منديلاً من أوراق جدك،
وصلاة قدسية من فم سلمى،

وسؤالاً معلقًا في جناحي الغربة".

مونولوج عمر في صمت السهل:

"لم أعد أبحث عن النصر حقًا، ولا أطالب القدر بمعجزة.

أريد فقط أن أترك لهذه البلاد وطيورها ذكرى بالغة الصدق.

كل فرد هنا حكاية، كل عش سفر من سير الذين عبروا أو سقطوا أو نهضوا.

متى يُدفن عالم بكامله في صمت سهول كهذه؟"

***

اقتربتهم عصبة من الفلاحين المنبوذين، وجوه شاحبة،

أطفال حفاة غير معروفين في دفاتر الضرائب، امرأة تحمل في حجرها طفلاً بعيون القلب لا الصوت.

جاؤوا بشيء من برغل وتمر وخبز جاف. قال أكبرهم، رجل موسوم بجرح قديم على حاجبه:

"لنا في كل بيت نافذة من الحكاية،

لم نجد في المدينة ركنًا إلا وقد أخذه المستبدون.

منذ أصيب شقيقي في انتفاضة العام الماضي صرنا مثل هذه الطيور...

مهجرين، لا يُناصرهم القوي إلا حين تكتب القصص وتحترق الذكريات".

دعوا الجميع إلى بيت عتيق من الطين عند حدود السهل. دخل الجمع في الحجرة الضيقة وجلست سلمى قرب الباب، لم تغلقه خوفًا ولا أملاً، بل لكي تؤمن للعابرين قبس ضوء كما آمنت به أمها يومًا.

بين الحضور ساد حديث الأقليات والبؤساء والانتماء للبقعة والمنفى. يوسف يستذكر بصوت خافت قصة أول مرة نُفي فيها أهل كتابه:

"كان والدي يقول كلما سقط منبر في المدينة...
أضعنا باب الطيبة، لكن قلبنا باب النجدة.
كل المرات التي سقط فيها منبر في جامع أو قاعة في سوق،
زرعنا مكانه ولدًا جديدًا في الحقل، وصحفًا من بلاغة الصبر".

***

فلاش باك: سمية، امرأة الفلاحين، حين مات طفلها

في سنة القحط، حين جفت جداول الري وانقطعت أعمال المدينة، مرض ابن سمية وسافر في أحضانها كما يسافر أي نهر مهما طال الجفاف. في أول ليلة مات فيها الطفل، جلست على الباب ومعها غربة لا تشبهها غربة.

قال لها زوجها: "الطيور تطير لا لتترك العش نهائيًا، بل لتجد مكانًا جديدًا تضع فيه البيضة مرة أخرى".

غسلت وجه ابنها وأغلقت عينه بهدوء، صلت عليه صلاة طيور الليل، ثم عادت لبيتها ولم يرها أحد تبكي بعد ذلك قط.

حين تعبت يومًا وشرحت لزينب أنها أصبحت تعشق رائحة العتمة... بكت زينب في حضنها كبنت ضيعتها الطفولة.

نهاية الفلاش باك

***

عندما جاء الليل الثاني، اجتمع رفاق الديوان والفلاحون حول نار صغيرة يغذيها بقايا سنابل جافة.

قال يوسف، وهو يحدق في تعاريج النار:

"في لسان النار أسرار لا يقرؤها إلا الهاربون

وفي ضوء الحكاية عزاء لم يعرفه السلطان

كلما تسقط ورقة من كتاب عظيم، يجلس أحدهم في هذا الليل القديم

ليروي ما حدث لطيور الليل مساء المطر".

قرأ عبد الرحمن من دفتريته القديمة:

"كان هناك، دائمًا هناك،

علامة تطير ولا تعرف السكون

خيط من ضوء أو دمعة لا تقال إلا في صدر الظلام".

أخذ هشام العود وغنّى لحنًا رقيقًا، صاغ فوقه قافية الغرباء.

رقص الأطفال وتبعتها عيون النساء، عانقن رماد الأحلام وسمو الأمل في عيون الحاضرين كلهم.

مونولوج داخلي لزينب:

"قلب الطيور لين، لكنها عنيدة.

لا تجلس على الشجر المعوج إلا لتنقر آخر عظمة من الخوف،

وسأكون أنا هذه الليلة نعمة الطيران فوق حقل القلب الخالي.

كل فجر على بعد خطوط قليلة... واحد.

الآن فقط أدركت معنى أن نحمي الفجر من الخيانة:

ليس بالكلمات فحسب، بل بأجنحة المعنى والرجاء".

***

ومع بزوغ الفجر، استأنف الجميع مسيرتهم على السهل،

دخلوا المدينة من طرفها المهجور،

صاروا طيور ليل أجبنوا أن يتوقفوا،

لكنهم بنيران أشعارهم

ونسخ الكتب القديمة

وبكاء المنبوذين

ونبض النساء

وأحلام أطفال لم يعرفوا خيانة الخوف

تركوا للحكاية جناحًا جديدًا

يطير فوق التاريخ

وينقر فوق كل حجر جملة لم يعرفها السلطان:

"كل مدينة لا تؤمن بالمنفى

يأتيها الحنين على هيئة طيور ليل

فيُستأنف التاريخ مطرًا مرة...

ونجمًا مرة أخرى".

الفصل العشرون

حافة النسيان

عند سفوح الجبل المنسي. خلف بساتين الزيتون الأخيرة، حيث تتقاطع الرياح المحملة بعطر الأرض القديمة مع دخان مواقد النساك، توقف رفاق الحبر عند منعرج المنحدر.

كان النهار عبئًا ثقيلاً، والشمس تجر في المدى ظلها الباهت، لم يبق للمدينة خلف ظهورهم إلا ذكرى رمادية تلوح من بعيد كيد غريق لا أحد يلحظها.

عبد الرحمن، المنهك، جلس على صخرة ليجفف عرقه، بنظرة عميقة إلى أثر فكرة تطوف في الرأس:

"هل حقًا للذكريات وزن؟ أم أن المدن لا تحيا إلا بما ننسى؟"

كانت سلمى في مؤخرة القافلة، صوت أنفاسها متقطع بسبب وعورة الدرب وقابلية القلب للخذلان. أما عمر فقد بدا في تلك اللحظة .وقد وصلوا أخيرًا إلى حافة النسيان تلك .كمن صار جزءًا من صفحة مهترئة في كتاب قديم: كل حرف فيه نجا بصعوبة، وكل هامش نجا بحظ غامض.

***

أمامهم، صعدت تلة صخرية تتوجها بوابة نصف مطموسة، انغرس فوقها رسم دوامة، ومكتوب في الحجر بلغة لم تعد إلا للنساخ المخلصين:

"هنا تبدأ نهاية الحكاية التي لن تكتمل... وتعود بداية الذكرى لمن يصبر للسطر الأخير".

همست زينب، تحدق في الكتابة المنسية:

"هذه لغة جدي، نقشتها يد رجل صادق مات قبل أن يخون السر.

انظر يا عمر: الرقم أربعة وعشرون منقوش في الذيل، هل يعني أن الباب لا ينفتح إلا في ساعة نادرة من اليوم؟"

أجاب عمر وقلبه يخفق بين رعب الدورة الجديدة وإغراء فتح سر التاريخ:

"ربما... أو لعلها ساعة النسيان، أو ساعة العبور. كم مرة تمنينا أن نخرج عن زمننا ساعة فقط لنعود أطفالاً تحت غطاء القصيدة؟"

انحنى يوسف ثم لمس الحجر المسن بحنو الكهل الأخير:

"في هذا الموضع يا بنيتي... أخبرني شيخي ذات مرة أن النسيان ليس سقوطًا في فراغ، بل هو بوابة سرية تعيد إلينا حكمة الضياع".

ها هو قلب الجبل مفتوح: ممر ضيق مظلم يفضي إلى هوة من صخور صلداء وسلالم مشقوقة تتعرج نحو كهف أعمق.

دخلت المجموعة بلا تفكير، يمشون على ضوء قنديل صغير تحمله سلمى وإرادة من مر بكل أقفاص العمر ولا يزال يؤمن أن وراء كل حافة لغزًا لا بد أن ينجلي.

وصلوا إلى قاعة محفورة في باطن الجبل، تتدلى من سقفها جذور شجر زيتون قديم. في الجدران شقوق أودع فيها من سبقهم لفائف

ورق ورسائل وأحيانًا تمائم صغيرة عليها أسماء رجال ونساء منقوشة فوق طين الأحلام.

أخذ يوسف نفسًا عميقًا، وأحس أن المكان يرجعه نصف قرن إلى الوراء، فيجتاحه تيار فلاش باك خاطف...

***

فلاش باك: يوسف زمن الحلم القديم

كان شابًا عشرينيًا في حضرة معلمه الأول. كان شيخه قد مر بجراح الهزائم الأولى، قال له ذات ليلة: منذ سوت الأيام شعرك يا بني، صرت تولد كلما كتبت.

"تعلم يا يوسف، كل من يحرس الكتب يكتب على جبينه حافة نسيان. أبطالنا لا يمشون في وسط المدينة، بل في ظل الحواف: حيث ينطفئ كل شيء إلا الإصرار الخفي.

وعندما تصل الحافة، ستعرف أن بعض الذكريات لا تولد كاملة: بعضها يحتاجنا أن ننساها لنستطيع حمل البقية".

كان يوسف يومها طفلاً ينهب المعرفة من لغة بلا كلام، يحفظ أن النسيان خوف، لكنه سلّم الحلم للزمان. أصبح مع الكهولة يرى أن حتى ما نسيناه يضيء فجأة في عز الليل، ويدفعنا نحو فجر مموه لا يجرؤ غير القلة أن يبصروه.

انتهى الفلاش باك

***

شرح يوسف لأصحابه بحة الحنين:

"يا رفاقي، قاعة الحافة هذه تسمى عند نساخ الأزمنة المغارة البيضاء:

ليست للعزاء فقط... بل للحلم الذي لا ينجح إلا إذا سقط مرة كاملة في النسيان".

بين الجدران قائمة تمائم مفتاح صغير في حجر، قلادة نحاس، رسالة بنصف قصيدة واسم نصف ممحو: "إلى أمينة، إن عدتِ بيوم، سامحيني لأني نسيت اسمك وأنا أكتبك في الحلم".

أخرج عمر دفاتره، كتب بخط ثابت:

"سنترك تحت هذه الحافة القصيدة التي لم يستطع أحد أن يكملها.

سنترك هنا صفحة لو وصلها أحد الأحفاد، علم أن الشعراء لا يموتون إلا إذا اكتملت الحكاية.

أما نحن... فدموعنا مزهرية المعنى وضياعنا دليل الغد".

***

حل الليل، عقد الجمع جسور الذكريات حول نار الحلم الأخير، وعاد كل منهم إلى ذاته.

قالت زينب:

"أطلنا الركض بحثًا عن الأمل حتى نسيت وجهي الأول — لكن مع كل خفقة قلب أعرف أن الحافة ليست انقطاعًا... بل احتمالاً جديدًا في حبكة هذا الدهر".

رفع يوسف رأسه وأنشأ مونولوجًا أخيرًا:

"أنا الذي قلت يومًا إن التاريخ لا يتذكر الهاربين، اكتشفت على هذه الحافة أن من نسيه التاريخ ربح سطرًا في وجدان الغرباء.

وأن كل كتاب لم يُكمل، وكل حلم انقطع نصفه...

ربما كتبته يد العرش أو حبة مطر،

لكنه هنا... شاهد مدينة لم تفقه سرها إلا يوم وقفت على حافتها!"

طافت نسمة باردة بين الجدران، شعرت سلمى أنها تحمل صوت أمها وطفلتها وصرخة الرجال الذين هاجروا ولم يعد لهم دار.

قال عبد الرحمن وهو يضغط على كتف عمر:

"نحن... لولا هذه الحافة، لمتنا من عقم الذكرى أو فساد العزاء.

هنا وحدنا، عثرنا في ذاكرتنا القديمة على ميعاد جديد مع النسيان".

تناوب الجميع يقرأون من أوراقهم، قطعة من قصة أم، بيت شعر مفتوح، رسم نجمة لكوكبة لم يرها أحد بعد في ليل المدينة.

ثم انحنت زينب بجانب حفرة في الحافة، ودفنت فيها قصيدة بخط طفل كتبها عمر في أول شتاء عاشوه معًا.

قالت:

"إذا تراكم فوقك النسيان يومًا...

اقرأ من التراب وأنصت لمن كانوا يخطون البياض

في فسيفساء الليل وأبجدية الرحيل".

***

حين بزغ خيط الفجر، خرج الجميع من المغارة البيضاء، خلف كل منهم صفحة جديدة للحلم، قلب شبه خالٍ من الخوف، وجزء صغير من النسيان انتزع ببطء، ليصبح ضوءًا، أو على الأقل... نصف ضوء.

بدأت المدينة عن بعد تتخفف من ليلها،

وأدرك عمر أن الطريق إلى النور...

إنما يمر بحافة النسيان،

وأن من لا يخاف من ضياع ذاكرته

يستطيع أن يعود، ولو وحده، ليكتب أول حرف في كتاب المدينة القادم.

الفصل الحادي والعشرون

انكسار الضوء

هي لحظة غريبة حين يشعر الإنسان أن قلبه يمشي في اتجاه مختلف عن أيامه، وأن الضوء الذي حمله في صدره لسنين صار فجأة هشًا، يتكسر.تحت وطأة الزمان كالزجاج الرقيق إذا تنفس عليه عابر بارد مرتجف.

وقف عمر عند حافة الجبل ينظر إلى قرطبة من علٍ. المدينة في عينه ليست تلك التي عرفها يوم جال شوارعها يتتبع ظل والده الحالم بقلم وقبعة.

من هنا، تبدو المدينة كطفلة فقدت أمها قبل النوم؛ عنيدة، متجلدة، لكن عارية بلا ذراع يقبلها آخر النهار.

كان يوسف يجلس خلفه على صخرة أكبر، ظهره مستند إلى الجدار الحجري، يحاول أن يكتم في صدره وجعًا يعرف جيدًا أنه لن يغفر له الطريق، ولا الغربة، ولا حتى نصوص الحكماء.

زينب وقفت قريبة من عمر.

عينان يضج فيهما أرق مديد، دمعة حائرة في مآقيها، شفاه تهمس لنفسها أنه لولا هذا الجمع، لذاب حبل رجائها في العدم كما تذوب قمم الثلج في نيسان بعدما يطول الشتاء أكثر من الحساب.

أما عبد الرحمن فقد مضى. وحيدًا يسير في الشقوق الصغيرة بين الصخور، فتى يلاحق الطيور البيضاء بيده، يدعي الشجاعة، لكنه يخاف الليل والوحدة أكثر من كل سيوف المنصور معًا.

***

قال يوسف، وهو يراقب ظلالهم المنعكسة على صخور المغارة:

"يا أبنائي، ليست كل الهزائم موتًا، أحيانًا تكون الهزيمة بداية جديدة حتى لو بحواف شجاعة مكسورة".

نظر إليه عمر، لم يجب. في عينيه مرارات كثيرة:

"أي ضوء هذا الذي ينكسر حتى إذا صار لنا؟

لماذا يكافئنا الحلم بالخيبة والنزيف كلما اقتربنا؟"

قالت زينب:

"الضوء وهم. في كل مرة كدت أراه، خفته أكثر مما تمنيت الإمساك به.

حين تقترب، يصرخ الماضي في ظهرك.

وحين تغادر، يجرحك الحنين".

تهشم الزمان في صدورهم.

في أعالي السهول، شجر الزيتون الأسود ينكفئ في الريح القوية،

أما المدينة فتغيب عن الأنظار شيئًا فشيئًا، كأن كل وعاء فيهم فارغ من حلم سكب حتى آخر قطرة.

جلسوا معًا تحت ظل صخرة كبيرة.

مر صمت طويل كأنه دعوة بكاء معلقة على جدران مغارة لا يدخلها أحد إلا خفيف الروح.

رفع يوسف رأسه فجأة وقال:

"سأروي لكم حقيقة مرة.

في كل قلب مدينة حقيقية تعتقها الخسارة قبل أن يكملها النصر.

يوشك النور أن يبهرك ثم يختفي، لكنه...

يترك في عينيك أثر انكساره،

فتتعلم أن ترى في الظل ما لم تره في الضوء من قبل".

كانت سلمى قد التحقت بهم، اهتز في يدها دفتر الأشعار،

همست: "الهزيمة مدرسة الفقراء، والنصر فلذة من عوز أزلي".

***

فلاش باك: يوسف زمن خيبته الكبرى

(قبل سنوات طوال)

كان يوسف فتى في أول حبه، كتب قصيدة بريد لجولييت أندلسية اسمها فردوس، حملتها الريح إلى يد السلطان بدلاً من يد الحبيبة.

عاقبه الوالي بالجلد أمام القصر، وتعلم بعد تلك الليلة حقيقة الضوء الأول:

أن المدن لا تمنحك المجد إلا لتسحب منك بعض قلبك... وأن العتمة تحفظ من الشعر أكثر مما يحفظه النهار.

سافر يوسف بعدها بين الأطلال، صار شيخًا قبل الأوان من أجل دفقة حبر وحلم لم يعرف طريقه.

ولما عاد إلى قرطبة بعدها بعقدين، كانت فردوس قد ذبلت، وكان صوته قد خمد، وبحث عن النور في البيوت المهدمة فلم يجده إلا في سطور المنفيين.

نهاية الفلاش باك

***

في الغروب، وقف الجمع على حافة الذاكرة لا حافة الجبل.

قال عبد الرحمن:

"أشعر أن لا شيء يتغير في المدن،

كل يوم ينكسر شيء في النور: بيت، صداقة، قصيدة، قمر...

نمضي وندفن جثثنا الصغيرة في حقائب الأوراق".

رد عمر، وهو ينظر إلى الأفق:

"اليوم وحدي أدرك: بعض الضوء لا يرجع،

ولو بكينا عليه ألف رقعة من الحبر... سيبقى بعض الحلم منثورًا في الريح لا سبيل إلى استعادته".

قالت زينب:

"لن نمضي وحدنا يا عمر،

في داخلنا آلاف الأطفال الخائفين من صليل الحنين،

وربما نموت غير مكللين بالانتصار،

لكن يكفينا أننا نحتمل الظلمة ببعض الشعر وبقايا الأسطورة".

***

ثم جاء الليل:

ريح تسرق من قلوبهم بقايا البسالة بصمت،

والحلـم يتلـوى في صـدر كـل مـنهم كَـلَدغ العقـارب في ليـالي الصيف الثقيلة.

غفا يوسف أولهم،

وغلب النعاس عبدَ الرحمن بعد بكاء مكتوم،

أما عمر فلم يستطع أن يغمض عينيه إلا عند الفجر.

مونولوج داخلي لعمر:

"كيف يُشفى الإنسان من ألمه القديم؟

أين تضع الأسى إذا أنكر عليه الآخرون حتى حق الذكرى؟

ثم لمن نكتب، إذا كان أقرب مقعد لنا في الحكاية قد شغله الموتى والمنسيون؟"

***

استيقظ الجمع فجرًا على وقع أقدام لم تُعرف أولاً.

دلف خيالٌ ثقيل إلى المغارة: رجل عجوز من أهل الرُّبى، يحمل في يده عصًا جافة وصُرَّة قمح.

قال بصوت ضعيف، لكن فيه وهج نبي منسي. يقول الحقيقة لمن لا يعرف:

"لا تبكوا على الضوء إن انكسر،

النور مثل الماء: يفلت من كل يد،

لكن الأثر وحده الباقي...

زرعتم في صخر قلوبكم زهرة حلم لن تموت،

منها سيشرب الأطفال في ليالي الجفاف،

وسيعرفون أن أنين الهزائم يعني أن النصر لم يعد بعد مستحيلاً".

***

قدم لهم القمح وبعض الشراب وذهب.

جلس الجميع يفكرون:

"في البداية، ظننا أننا ضحايا النسيان.

الآن، بتنا جزءًا من حكاية لن تكتمل ما لم نكتب ما مضى. وما سيجيء".

***

قال يوسف:

"انكسار الضوء علامة.

فكل من ينقلب على نفسه مرة لن يخسر كل شيء:

سيتعلم أن النور في العتمة،

وأن الذي انكسر فيه أمس صار مرآة للغد".

حملت زينب يد عمر وهمست له:

"انظر... ضوء الشمس يعود دومًا، لكننا...

قلوبنا وحدها تحفظ شعاع الحلم مهما انشطر الزمن".

كان الجميع في تلك اللحظة جسمًا واحدًا.

حشدوا شتاتهم وقرروا بدافع من وعورة الحال:

أن الضوء مهما تفتت، فإن آثارهم المكتوبة ستبقى في قلب الحكاية،

وأن انكسار الروح يعني البدء من جديد،

ولو بنصف جملة في دفتر قديم أو وهم طفل يولد،

أو قبس صغير يجعل الليل أخف قليلاً من مُرِّ العجز.

***

وفي لحظة سكون، وقف عمر في مدخل المغارة يكتب على الجدار الخارجي بعود فحم ما بقي لديه من قدرة على التمرد:

"كل الضوء حين ينكسر

ينبت كميناءٍ في الصخر

أطفالاً وشعراء، وأمهاتٍ جديدات

لا يخشون الليل...

ما عاد للأمل ضوء إلا في العتمة

وما عاد للحلم إلا أجنحة من التعب

لكننا سنكتب...

حتى إذا فشلنا، بانت زهرة هذا الانكسار

حفلة العرق الأخير

وغيمة الضوء التي...

لن يمحوها الزمن".

الفصل الثاني والعشرون

أقنعة الرماد

لا تعرف الحقيقة وجهًا واحدًا، ولا للرماد قناع واحد... هذا ما أدركه عمر وزينب ويوسف وعبد الرحمن وسلمى، وهم يخيمون ليلتين متتابعتين بين مغارة الجبل وضفة نهر الوادي الكبير. كلما لمح الواحد منهم نور الفجر، تردد ظله خلفه أطول من اليوم الذي سبقه، وأشد رمادية من طفولته نفسها، حتى صار كل منهم، دون أن يقصد، حاملاً قناعًا جديدًا: للأبوة، للموت، للثورة، للحلم، للخوف.

كانت الريح تهب غربية مجلجلة فوق سطوح قرطبة، تحرك الرمال في السهول وتذر رماد الليالي القديمة فوق كل من ألقى بنفسه في أتون التاريخ. اختلطت بين الأصدقاء فجأة أنفاس الشك وخشية الخيانة؛ هل ما زالوا حقًا رفاق مقاومة، أم صار لكل واحد فيهم مجهول صغير يتخذه حصنًا أخيرًا إذا وقع الليل الكامل؟

***

في تلك الليلة، كان الجميع يعلم أن المدينة على عتبة انقلاب جديد: حملة تفتيش كاسحة أوشكت أن تزلزل الأزقة، وأخبار بوشاية جديدة في أوساط ديوان الحكمة.

قال يوسف بصوت أكثر وهنًا من أي وقت مضى:

"كلما أمعنا في الحيلة، صار الرماد في صدورنا أكثر من الحبر... نحن الآن أقنعة تمشي لا وجوه".

نظرت سلمى إلى رفاقها بعينين منهكتين من البكاء والكتابة معًا:

"لم أعد أعرفني دون شعري. كلما كتبت بيتًا تحت الرماد، بان لي أننا أكذب قليلاً، ونبتهج أكثر مما بقي في الحلم أصلاً".

شدت على يد عبد الرحمن وقالت:

"أيها المنفي... ما عدد السيوف التي ستعبر رقابنا إذا وشى أقربنا بنا؟"

أجابها عبد الرحمن هامسًا، مائل الجسد في الريح:

"كل قناع يُخلع بعد جرحين:

جرح تكتشف فيه أنك لم تكن بطلاً بل نجوت فقط،

وجرح تخون فيه الجميع، ثم تكتشف أنك من كان يحتاج إلى الإنقاذ".

***

بينما كانت المجموعة تتبادل حكايات الخوف على ضوء النار، اقترب صبي مختبئ في الظلال، يحمل ورقة من سلمان بائع القمح في إحدى الضواحي:

"الوشاة عرفوا موقعكم الأخير. انتشر حديث في المدينة عن خائن أرسل للخليفة قائمة بأهم كتبكم وأسماء أنصاركم.

سيُشنق غلام صغير عند الفجر إذا لم يجد الجنود كتاب «نجوم السياحة» الذي أخفيتموه في مغارتكم الأخيرة".

امتقع وجه يوسف حتى شحب. سقط الدفتر من يد عمر.

قالت زينب:

"كل شيء مات إلا الرحمة. أي قناع يخفي قلبًا يمتهن قتل الأطفال لأجل كتاب؟"

***

فلاش باك: جعفر الصقلبي - زمن سقوطه الأول

جعفر شاب في بلاط المنصور، مغرور ساقه الإعجاب بالسلطة إلى مغامرة مع الحرف.

في إحدى المدائن قبض على شيخ يتيم، هدده بقسوة: "إما دلني على مكان مخطوطتك، أو أحرقت زوجتك أمام عينيك".

عجز الشيخ، أُحرق البيت، انهار جعفر على صدر أم عجوز عند باب الجحيم.

منذ تلك الليلة صار لا يعرف وجهه الحقيقي، كلما نظر في المرآة رأى وجه أبيه المتوفى، وقناع رجال الدولة، وكوابيس أطفال لم يولدوا بعد، لكنهم كل ليلة يموتون تحت الرماد.

نهاية الفلاش باك

***

توقف الحديث ساعة كاملة، ضياء النار يحفر في أعين الجميع مرآة من ألم.

تكلمت سلمى نصف همس:

"أقسى ما في الهزيمة ليس فقدان الوطن... بل فقدان القدرة على أن تعترف أنك خفت أن تبقى على وجهك فخسرت روحك".

قال عمر، وقد ضاق به الصدر:

"أشعر أن كل ما حولي خدعة. أكتب لأنجو، ثم أجوع. أقف معكم وفي داخلي طفل يرتعد لو سمع اسم أبي... ما نفع المقاومة إن تحولت إلى صنم لا يبكي أحد أمامه إلا غريب جديد؟"

ضمته زينب إلى صدرها دون أن تتكلم.

مر عبد الرحمن خلفهم وأشار للحاضرين:

"أنا لن أهرب هذه المرة من المحاكمة. هذا الصبي ليس ذنبه أن يحمينا.

سأذهب مع يوسف... نساوم، ندفع العمر كله... لكني أريد مرة واحدة أن أرى نقاء وجه بلا رماد".

اقترب يوسف من القمقم الذي خبأ فيه أعز مخطوطة في صدره؛ «نجوم السياحة».

قال للجميع، قلبه حجر وجناح في آن:

"لو منحني الزمان خبزًا وكتابًا، لاخترت الخبز للضعفاء وكتابًا للغد.

لكن بين الأقنعة والرماد لا ينجو إلا وجه جرحه أغلى من بقائه".

سار الجميع في صمت حتى وصلوا تخوم المدينة فجرًا، ثم خطوا نحو الساحة التي أعدها الجنود لمحاكمة الغلام.

في الساحة، وقف جنود المنصور كأشجار من رعب آسيوي قديم.

وسطهم صبي معصوب العينين، راكع، تنحل أصابعه على ركبتيه.

وقف جعفر عابس الوجه يزمجر:

"من منكم أهل الكتب؟ هاكم فرصة مزج وجوهكم بالرماد، أو أشعل الحريق في الصبي!"

شعر الجميع بثقل واختناق دائر في الصدر.

همس عمر ليوسف:

"كل شيء سيموت فينا إن مات هذا الولد بلا حلم، حتى لو نجونا ألف مرة".

لم ينتظر يوسف.

تقدم ورفع القناع عن وجهه، كشف للرجل خصال شعره البيضاء:

"أنا. أنا الذي خبأ الكتاب.

لم أعد أخاف الشر، بل أخاف أن أموت قبل أن أغفر للمدينة قسوتها".

وقف جعفر مذهولاً. التقى عيني يوسف، رأى في صلابتها خريف كل الأقنعة.

قال له بهدوء لا يسمعه إلا هو:

"ربما أنت الرجل الذي كنت أتمنى أن أصبحه...

لكنني لم أكن شجاعًا إلا خلف رماد الآخرين".

أمر جعفر بإخلاء سبيل الصبي، أخذ المخطوطة .لكنه لم يحرقها بل دسها في صدره.

قال لعمر بهمس:

"اذهب. ليس كل ظالم في المدينة بلا دمعة. حين يكسر.الرجل قناعه، يولد من موته طفل جديد".

***

عادت المجموعة في الليل إلى المغارة.

كل وجه احترق بعضه اليوم؛

كسر يوسف قناع الزعامة للأبد. استحال شيخ الجبل طفلاً يعرف الآن ما نسيه منذ مئة عام.

زفرت سلمى قصيدة طويلة في حضن الريح، وأغلقت فراغات الرماد بين أصابعها.

بكت زينب لأول مرة منذ زمن، لأنها شعرت أن أباها .وأي أب بريء .كان دومًا رجلاً بلا قناع، لكن الدنيا أجبرته أن يتقيها حين ولدت المدن بأزمة النجاة.

***

جلس الجميع حول نار صغيرة.

قال يوسف بصوت خافت لكنه قوي:

"لن أنسى اليوم. لن أطلب المغفرة من التاريخ، بل فقط من الغد.

كـل أقنعـة الرمـاد تنهـار عنـد أول دمعـة طفـل لا ذنب له إلا الحلم".

مونولوج أخير لعمر:

"اليوم فهمت أن القوة ليست في أن ننتصر،
بل أن نختار وقتًا لننكسر...
أن نعيد لوجوهنا ملامحنا، حتى لو زحف الرماد بلا نهاية".
تبادلوا القصص والدموع حتى ظهر الفجر...
وبين يدي كل منهم رائحة وجه جديد يحمل علامة لا تُرى:
من شف عن روحه ظل القناع،
ظل في الدهر ذكرى،
ومن مات خلف الأقنعة...
مات حكاية لا أحد كان يريد أن يرويها.

***

وهكذا انقضت ليلة ذروة الرماد في قرطبة الصراع،
وحين أشرقت الشمس، لم يبق للقوم إلا وجوههم الحقيقية،
وقلوبهم المكسورة عارية بالكامل أمام القدر...
لكنهم، لأول مرة، أدركوا أن مدينتهم...
قد تُشفى يومًا، حين يعترف فيها الجميع بوجوههم لا بأقنعتهم.

الفصل الثالث والعشرون

عار الليل

في تلك الليلة التي سقطت قرطبة فيها بين المطر والحديد، لم تكن السماء تعني أنها تُطهر الشوارع، بل كانت تغسل الدنيا من آثام زحف لا يتوقف.

كل شيء صار مسلوخًا عن اللهفة الأولى... أدرك عمر، حين ركض في زقاق معتم بمعية عبد الرحمن، أن الكلمة الواحدة لم تعد تكفي للنجاة، ولا حتى الحب كان خلاصًا في مواجهة غضب العسس وسياط المنصور.

منذ صبيحة تلك المحاكمة المكلومة وانهيار الأقنعة، فقدت الجماعة الصغيرة جزءًا من حاستها للاتجاه، بات يوسف مكسور الأمل غائر العينين، وسلمى تغني لنفسها بلا صوت، وعبد الرحمن يحدق في الشوارع كأنه يرى للمرة الأولى الطرق جميعها تؤدي إلى الحفرة نفسها.

كانت زينب وحدها مسكونة بأمل ضعيف... لكن كلما لمعت فكرة في رأسها تهاوت أمام شدة الطغيان وسقوط الأبرياء بلا حساب.

***

اختبأت المجموعة لبضع ساعات في حجرة مهجورة بدير ناءٍ. كان المطر يقرع السقف الخشبي، وأصوات الريح تحمل من بعيد أنين الصلبان القديمة وأجراس الكنائس المنسية.

لم يكن ثمة كلام كثير. كان الخوف أبلغ، والذنب أعمق.

قال عبد الرحمن بعد صمت طويل، وعيناه تلمعان في الظلال:

"ما الذي وقع علينا؟

هل كتبنا هذا المصير، أم نحن الذين هربنا من الحبر لننطوي في عار الليل؟"

أجابت سلمى بنبرة بلا دموع:

"كل ثورة تنطفئ برسالة... كل كتاب ينتهي عند دمعة أم فقدت ابنها.

لم يستطع الشعر أن يحميهم، ولا يُرثى إلا من يستطيع أن يعترف أنه فشل في أخلاقه قبل أن يفشل في براعته".

***

عند منتصف الليل جاءت مريم –امرأة الغرباء السوداء العينين– تحمل خبرًا شاحبًا:

"قُبض على مجموعة من نساء الحي أثناء محاولتهن تهريب دفاتر العلم خارج الأسوار.

في الغد، ستُجبر كل امرأة على السير في الساحة بثياب الأسرى، يُنكَّل بها أمام الناس، وتُعلَّق رقعة بحروف «عار الليل»".

نزل الكلام مثل حجارة تتساقط على قمة هم قديم. صار الليل فحيحًا متراكبًا على الصدور، حتى يوسف العجوز طأطأ رأسه بكبرياء مكسور.

زعق عبد الرحمن في وجه المدينة:

"أي مدينة هذه؟

هذه ليست قرطبة الجمال ولا قرطبة الحلم - هذه مسرحية بشعة لجحيم ينتقم فيه الجلاد من القصيدة بذنب الأنثى!"

لكن سلمى سكتت ثم ربتت على كتفيه:

"العنف ليس جديدًا، الجديد فقط أننا أصبحنا محل الرجم بعد أن حلمنا بأن نكون موضع العيد.

العار ليس للسجين فقط... بل للعالم إذا أدار ظهره للغريق ليبكي حبرًا مهدورًا".

***

فلاش باك: زينب – ليلة سقوطها الأولى

أيام طفولة زينب في القصر، رأت والدتها تسحبها ليلاً من بين جواري السلطان، تُغلق عليها باب غرفتها وتقول:

"ستأتي ليلتكِ يا ابنتي عندما يُعلَّق اسمكِ في ساحة السوق... لا تظني في ذلك سُبة، ربما يكون الفجر الوحيد الذي سيفتح بابًا لصديقاتكِ بعدكِ.

العار يا زينب هو أن تخوني نفسكِ وتلعني جدكِ وقد ترك لكِ النجوم لتنيري بها خطاكِ يوم تتعثر بكِ المدينة".

في تلك الليلة، حين رأت جدتها أمها تُجلد لأنها أنقذت طفلاً صغيرًا من الغرق في نهر قرطبة، فهمت زينب أن أرق الليل ونباح السجان أهون عليها من أن تحمل العار بضمير ميت.

نهاية الفلاش باك

***

أقنع يوسف عمر بأن يذهب بصحبة زينب وسعيد (اليتيم الذي صار ابن الجميع) ليشهدوا في الخفاء سيرة النساء المنكوبات، لا ليتلاشوا مع الجموع، بل ليكونوا شهودًا على حكاية سينقلونها إذا بقي في الدهر قلم وطفل وأمل.

كان الصباح رماديًا، الساحة مكتظة صامتة، جيش الحراس بطرف، وعيون الجواسيس بطرف، والسكان يشهدون حفلة العار كما يُشاهدون كسوف الشمس: خوف خفي وإثارة ممنوعة.

خرجت عشر نساء: شابة بثياب ممزقة، وامرأة في منتصف العمر، وطفلتان، وعجوزتان، وصبية لم تحصل أثر المروءة من ذويها.

كانت كل واحدة منهن ترفع رقعة سوداء على صدرها مكتوبًا بالقلم الأحمر:

"عار الليل – خائنة الكتاب".

وقف جعفر الصقلبي في أعلى الدرج، متجهم الوجه.

تردد في عينيه طيف من الشفقة المكابرة... أرغمته السلطة على عقوبة لا يشتهيها قلبه، وأزَّ في صدره ارتعاش أغنية من زمن الطفولة الخفي.

أمر ببدء الاستعراض، نظر إلى وجه المرأة الأولى التي لم تغط رأسها.

قال في قلبه: "لو انتصرت المدينة يومًا، سيخجل تاريخها أن يذكرني إلا في قاع الندم".

مر الموكب على الساحة وسط صمت مطبق.

أرادت زينب أن تصرخ، لكن عمر أمسك بيدها:

"ليست الشجاعة أن تموتي في كل المعارك... أحيانًا، يكفي أن تحملي الرواية دون أن تحترقي".

سقطت طفلة على الأرض من الجهد، فأسرعت سلمى فانتشلتها بين الجموع، وأخفت رقعة العار بعباءتها السوداء، وهمست في أذن الصبية:

"اكتبي اسمكِ في دفترِكِ غدًا، ودعي للجبناء أن يرتجفوا أمامكِ ألف سنة".

***

بعد العرض الجنائزي، اجتمعت النساء في بيت عبد العليم (الفلاح ذو التوقيع القديم على حجر الغرباء).

أطفأت سلمى كل الأنوار، وقالت لزينب وسعيد:

"كل عار الليل مجرد ديباجة... ما كُتب على الورق بقلب حر، لا يُمحى أبدًا".

رفعت زينب رأسها:

"ولا يُخجلني إلا أن أموت بلا أثر.

العيب أن تنتهي الحكاية دون أن يكون لنا حرف في الصفحات المقبلة".

بالليل، توزعت الدموع بين الركن والزاوية، سهرت النساء يروين ما فاتهن من المشارق والمغارب، وسجلن أسماء من صبرن على الجلد والرجم والسباب، وتواعدن أن الملاذ الأخير يجب أن يكون قصيدة كتبتها امرأة منسية في منتصف العار.

ألقت زينب خطبة في مقابل شمعة صغيرة:

"جدي قال لي يومًا: العار لا يدخل القلوب الطاهرة، فقط يمسح أغلفة الجسد.

نحن بنات السلالة التي كتبت على الجدران حين احتقر الحاكم الكتب.

سنكتب على تمائمنا ودفاترنا قصائد العار... ثم نطبخ منها أغنية للجيل القادم.

العتمة حين تحتقرينها، تشرق من تحتها زهرة لا يدوسها أحد إلا صار هو العار نفسه".

***

جلس عمر وحده قرب الشرفة النافذة على الريح والضياء.

كتب في هاتف ذاكرته:

"الليل طويل، والعار عابر.

الحكاية أطول منهما معًا...

كل من وطئ المدينة وغنى لها في العتمة،
عرف أن المجد ليس إلا كفاحًا متصلاً بين رقعتين من الظلال؛
إحداهما للموتى،
والأخرى للأحياء... في كل ليلة عار،
وفي كل ليل، قصيدة لا تزال تبحث عن خلاصها".

رنّت مزامير الغرباء قرب الأفق، نساء يدفئن البنات بخبز وقبلة وذكرى أمومة وأغنية من زمن لم يعد أحد يكتبه إلا من حمل في صدره صهوة الكبرياء.

كان الناجون يعرفون... أنه مهما طال الليل، لا يُمحى العار إلا إذا كتبناه بصدقنا لا بخوفنا، وأن الوشم الذي يُطبع في سوق المدينة قد يتبدل في جيل واحد إلى تعويذة شرف توقظ الأمل من حفرة اليأس.

***

وهكذا انتهت ليلة العار... ذات ليل فارغ ومطر ثقيل،
نزلت القصائد في دفاتر النساء ياسمينَ الغد،
واحتطب التاريخ بعض ملامح الشرف من نعش المدن المهزومة.
وعندما بزغ الفجر فوق الشرفات لأول مرة منذ زمن،
كانت زينب تقول لسعيد:

"ها هو نور الصبح، ليس للعار ولا لليل، بل لشعر جديد يكتبه من لا يخافون حتى وهم ينتظرون الحكم في سوق المدينة".

الفصل الرابع والعشرون

الإوزة السوداء

عند غروب يوم متقلب، غابت شمس قرطبة خلف سحب رمادية تعانق الأفق ببطء، كأنها تستحث المدينة بأن تستجمع بقايا صبرها لعاصفة قادمة من بعيد.

على أطراف المدينة، في بيت طيني صغير شبه مهجور، انعقد مجلس سري لديوان الحكمة وجماعة الأحرف النازفة: يوسف، عمر، عبد الرحمن، زينب، سلمى، عبد العليم، وفاطمة بنت مريم، والبقية ممن بقي من المنفيين وطلاب العلم، والغرباء ممن عبروا الأندلس ولا مدينة لهم إلا الكتب والذكريات.

في وسط الغرفة، جلس الجميع حول منضدة وُضعت عليها شمعة تتراقص ألسنتها بين هبوب الرعب وهامس الرجاء، وحولها صحن فخاري رُسمت عليه إوزة سوداء، منتصبة فوق موجة، رأسها إلى السماء، عين واحدة مفتوحة واسعة.

نظر الجميع في عين الإوزة كما ينظر الغريق إلى شاطئ بعيد.

قال يوسف:

"هذه الإوزة السوداء رسمتها يدي في شباب روحي، بقعٌ من حبر هارب من النار.

قال لي شيخي مرة: إذا صمدت الإوزة السوداء على جسم الماء في قلب العاصفة، نجت من كل العيون، وصارت أسطورة لا تموت حتى لو احترق البحر نفسه".

كان المجلس هذا مساءَ مجلسِ قرار، أو بالأحرى مجلسَ تضحية، كان عليهم أن يختاروا:

إمّا الهجرة الكاملة بالكتب... جمع المخطوطات السرية وتهريبها خارج قرطبة ولو كان الثمن بقاءهم في الأسر أو الموت؛

أو إشعال مكتباتهم، ليحرموا المنصور وغلمانه من الاستيلاء على كنوزهم، ويمضي كل واحد منهم قدره بعد أن يكتب آخر وصاياه.

***

ظل الصمت سجانًا دقيقًا فوق الجماعة، وكانت سلمى أول من كسرت جدار الحيرة.

قالت بصوت بلا زينة:

"سقط من أعمار الجميع هنا أكثر من نصف البراءة لأننا اخترنا ألا نخون الحب ولا الحرف.

كلما ظننت أن الهجرة ستنجيني، تذكرت أنني حين عبرت الميدان ذات مرة، فقدت حلم أبي في أن أحمل كتابه خارج النار.

من نجا بظله هو الذي لم يكن له ظل في الأصل".

أجابها عمر وهو يقلب دفتره:

"لو كانت للمدينة روح واحدة، للبست اليوم رداء الإوزة السوداء:

تنظر من علٍ، رمادها لا يشبه رماد منايا الآخرين.

لكنني أخشى أن نحرق أنفسنا ونترك الحكاية طيرًا بلا أعشاش في سماء منسية".

قال يوسف موجهًا وجهه نحو زينب التي سحبها التعب إلى صمت غير مسبوق:

"رأيت الإوزة السوداء وأنا صبي في الليالي التي كان أهلها يخفون الكتب والنساء تحت الأرض؛ علمت أن المعجزة لا تصنعها الكثرة بل القدرة على الغياب الذكي...

أن تتحول إلى رمز لا يُمسك، وطيف لا يُمنح كفنًا ولا يُسجل في دفاتر السلطان".

قالت فاطمة بنت مريم، منزلها لم يبق منه إلا درج خشبي ومحراب مكسور:

"أقف بين الهجرة والنار كمن أقف بين قمرين؛

أحب أن أبقي الحبر حيًا في يد حفيدي يومًا،

وأخشى أن أترك أي شيء في يد جلاد حرق أمي مرتين: مرة جحودًا، ومرة نسيانًا".

تكلم عبد العليم بوجه الجد الصحراوي:

"النخلة لا تموت، فقط تنتقل بذرتها في جناح إبريق عابر.

يقال إن كل مخطوطة ضاعت في الأندلس عاد يوصفها الإوز الأبيض في صحراء المشرق بعد قرون...

لكن الإوزة السوداء تبكي وحيدة بعد الماء، ترجف أحيانًا لكنها لا تغرق!"

***

في قلب العتمة، نهض يوسف واقفًا.

قال:

"ليكن الليلة إذًا قرارنا:

سأشعل قسمًا من المكتبة بنفسي إذا حاصرونا،

وليبق قسمٌ من حبرنا في قاع المغارة مع من يستطيع الهرب أو أخذه إلى مأمن جديد.

أما من بقي، فليكتب وصيته اليوم ويعلّقها تحت رقبة الإوزة السوداء...

هكذا يبقى للمدينة أسطورة كالعنقاء: مكيدة الخراب تقاومها ذاكرة تحلق فوق الرماد".

***

فلاش باك: زينب - أول نبوءة

في صباح قديم باحت به السماء لنجمات بيت جدها، رأت زينب رؤيا:

كان على باب القصر إوزة سوداء، حاول حراس الخليفة الإمساك بها فلم يقدروا، كلما رغبت امرأة في الهرب سلّمتها الإوزة

سـواد ريشـة، فاختفـت الفتـاة مـن عيـونهم، وظهـرت بعـد سـنوات كسيدة مسلَّحة بالعلم على شاطئ بعيد يدعى "مدينة الغرباء".

قالت جدتها: "هذه رؤيا الحرية يا زينب... وسواد النبوءة ليس عارًا، إنه عبورٌ للأبد".

نهاية الفلاش باك

***

كتب الجميع وصاياهم.

سلمى كتبت لأحفادها أن يكونوا أوفياء لقميص جدتهم المطري في الليالي الباردة أكثر من أي كتاب؛

عبد العليم كتب أنه لا حكم إلا للأفق، وأن الزرع لا يموت طالما هناك قلب يعلّق الفجر في أحلامه؛

عبد الرحمن كتب لسعيد... الذي كان طفلاً حين بدأت الرحلة وأصبح شابًا مثقلاً بالشهادة.

"يا بني، كل شيء ينكسر، والبقاء أصعب من النجاة، فلا تركع لغير الله ولو أُحرقت في يدك آخر ورقة للعالم".

أما عمر، فكتب بعين تدمع:

"وليكن لنا من سواد هذه الأيام جناحٌ ولو مفرد...

نحمل به جيلاً من الخطى إلى بيتٍ لم يولد بعد".

انتظروا الحصار حتى الصباح، وكان جنود المنصور قد أغلقوا أفواه الحارات، حتى الطير لم يعد يجد متنفسًا، وصارت المدينة تشكو أنين قلبها فوق السطوح.

في إحدى غرف البيت المهجور، دوت ضربة باب عنيفة، ارتجف الحبر في الدفاتر،

صرخ أحد الأميرين بالجنود:

"دمروا كل شيء وخذوا الطفل الوراق حيًا أو ميتًا!"

أشعل يوسف الشموع الباقية في المكتبة. دفع عبد العليم المخطوطات الأثمن إلى عمر وزينب.

قال يوسف:

"لا تبكوا على بيت يموت ببطولة أعظم من حياة الأوغاد... يا ابن يوسف، لا تترك في قلبك مكانًا إلا لضياء الحبر وسواد العبرة".

***

بينما اشتعلت النيران وأخذ الجنود يصيحون والدخان يعانق سقف البيت، ركض عبد الرحمن إلى خلف الدار، فتحت سلمى مخرجًا سريًا يقود إلى قبو قديم بنته النساء المنسيات، نزل الجميع يدحرجون صناديق الكتب حتى اغتسلوا بدخان ذكريات لن يقدر أحد على حرقها مهما سلخ الرمح رقبة الشجر.

قالت فاطمة:

"الإوزة السوداء هربت من النار مرةً أخرى...

حملت في منقارها سيرة مدينة كاملة لن تفنى إلا إذا آمنا بالنسيان أكثر من الإيمان بالمعجزة".

مضت الليلة بين الدخان والعويل والنواح وصلاة النساء المضنيات.

في الفجر، وسط أنين المنازل المحترقة ورائحة التاريخ المهدور،

غادرت مجموعة الوراقين آخر المهجع،

أرفق عمر مع مخطوطات النجاة ريشة إوزة سوداء عثر عليها عند عتبة باب غربتهما القديم،

دفنها مع أول قطرات حبر في دفتره الكبير،

وكتب في الهامش جملة لن يلاقيها أحد إلا إذا عبر بالألم فوق الماء:

"في ذروة الرماد... ولدت الإوزة السوداء على صفحة المحنة.

كل حكاية نجت من الحريق

صارت نبوءة في يد من آمن بشجاعة النهاية".

في الطريق إلى المجهول، على حدود السراب ومطارق الجنود،

همست سلمى لجارتها المنفية:

"يا أختي، لا تنسي... روايتنا لا تموت، ما دامت كل إوزة سوداء تطير في ظلالنا ذات ليلة".

وغابت الأصوات والمكتبات،

ولم يبق للمدينة المحترقة إلا حلمٌ يطوف بين كتاب وناجية وطفل جحيم وامرأة كتبت عن الموت بقلم الحياة...

فيما حلّ على ذاكرة الجميع اليقين الغرائبي:

أن المدينة قد تُحرق ألف مرة،

لكن أسطورة الإوزة السوداء...

ستعود للغناء كل مساء.

الفصل الخامس والعشرون

النار والندى

لم تعرف قرطبة ليلة أشد من تلك التي اشتعلت فيها المكتبات، تداخل فوقها دخان التاريخ مع حفيف الأشجار الجافة وأصوات الجنود وحشرجة الأمهات المكلومات.

كانت الليلة نارًا وندى... نار تشب بعناد، لا تصغي إلا لصوت القهر، وندى متضرع في عيون اليتامى، يبلل رماد الكتب

ليبقى فيها ظل من الذاكرة.

وقف عمر على حافة زقاق طويل، يلهث صدره كما يلهث صدر الفارس الخائف قبيل المعركة، ويده متورمة من القبض على حقيبة مخطوطات لا تساوي وزنها ذهبًا، لكنها أغلى عليه من عمر المدن.

في طيات المدينة، في تلك الليلة، احتدمت المواجهة بين مجموعة الوراقين ومن بقي من أهل ديوان الحكمة، وبين رجال المنصور يقودهم جعفر الصقلبي، يحملون بينهم تهديد القوة القديمة حين تمتزج السلطة بالرعب والحنين بالخيانة.

***

في قلب الزحام، سمعت زينب زمجرة الجند يقتحمون بيت سلمى، رأتها للمرة الأخيرة تلملم دفاترها في صدرها، تصرخ في وجه رجل شدها من ذراعها:

"لن يبقى كتاب للأوغاد!

احرقوا أيها الجبناء إن شئتم،

الحبر فينا أعظم من نيرانكم!"

أشعل عمر سبابته على طرف شمعة صغيرة، حَمَا بها حافة ورقة من مخطوطة أبيه، شفَّت عليها كلمات تهتز حزنًا:

"من موت الحبر بدأت المدن

ومن عرق النساء أكبر المجد

كل كتاب احترق تكتب الأمهات فوق رماده قصائد للعائدين".

عبد الرحمن ركض بين الأزقة، يصرخ بأسماء النساء والرجال والأطفال يتساقطون بين سعير الحطب وسياط الظلم، كمن يخوض معركته الأخيرة لنصرة الحلم حتى لو هُزم.

***

في داخل قصر الزهراء، انعقد المجلس الأخير بين جعفر الصقلبي والمنصور، وقفا أمام خريطة المدينة كقائدين منحوتين من حجر الأحلام المهزومة.

قال المنصور:

"احرقوا كل شيء.

لا أريد أن تبقى جملة واحدة إلا باسم الملك.

المعرفة عصيان... والقصائد فتنة!"

رد جعفر برعشة الحائر:

"سيدي، هذه المدينة ليست ملكك وحدك.

هي ميراث النهر، وزهر الحدائق، وقصائد النساء المنسيات في الليل.

كلما حرقنا كتابًا، اشتعلت في العيون قصيدة جديدة لا تموت إلا إذا مات فينا الرأس مع الرأس...

النار تجهض الحكمة، لا تولدها".

زمجر المنصور:

"لم أعد أرتجي نصيحة من قلب خائف.

نفذ... أو تُنفى في نفس اللهب!"

***

في زقاق منزلق، جمعت زينب من بقايا المارين ورقة منفلتة، كتبت عليها:

"كلما تقاتلت السكاكين، واحتد الغازي، نما الندى على رماد الورق...

كل حرف في قلب الأم ضوء معلومات جبلية

يعيد للناس حق المطر حين تجف البلاد من الضمير".

في داخل أرض القصر، وصل عمر بعد معركة هروب طويلة، تلطخه الدماء والحبر وحتى رماد الخوف، واجه جعفر وحده في مشهد لم يخطط له أحد.

تبادل الاثنان نظرة مختلطة بالرهبة والوداع، قال جعفر بصوت مجروح:

"جئت لأنقذ ما بقي في القلب...

القوة ليست في اليد،

هي في من يتحمل احتراقها لأجل الجدوى، لا لأجل أن يبقى الحلم بلا موت".

همس عمر:

"دع لي الخروج بمخطوطات الليل...

دافع أنت عن امرأة وحيدة، عن طفل لم يولد بعد،

عن مدينة لا تشتهي الانتقام بل وعد السحاب".

***

فلاش باك – جعفر وقصيدة الموت

في أيامه الأولى، قبل أن يصير جنديًا للمنصور، جلس جعفر مع شيخ ضرير يعلمه الحروف الأولى للظلم والمقاومة.

قال الشيخ:

"النار بابها واسع.

لكن من كتبت له الحكمة،

سيمر في دخانها ولو احترق،

وسيترك خلف النار وميض ندى

يروي للأجيال حكاية من عاش في الرماد،

وظل قلبه أخضر مثل الزهر في صيف لا يرحم".

اشتعلت في البيت الأول النيران، ارتمت سلمى في أحضان النار بعد أن ضمنت خروج حفيدتها وصيةً إلى زينب،

همست لها:

"اكتبي قصتنا...

لا كقصيدة هزيلة،

بل كما يكتب الراهب على جدران قلبه الصابر".

عبد العليم حمل وراء زفرات الحطب المحترق رزمة كتب وقذفها عبر الجدار إلى عمر،

لمح يوسف الصغار يحومون في الليل حول جذوة البيت، همس الجميع:

"النار ليست موتنا

الندى وحده شهيد يبقى بعدنا للأبد".

***

هدأ الليل، لم يبق في الزقاق إلا رائحة الخبز الأسود وأنين العاشقات.

قيل إن جعفر صرخ في جمع الجنود:

"اتركوهم،

فالمدينة المسروقة لم تعد تهاب الموت، بل العار من طغياننا!"

غادر المنصور القصر في فزع، يبلل جبينه العرق،

قال لجعفر أخيرًا:

"خذ قلبك الذي كسرت به المدينة

واذهب... لا سلطان في حطام لا يؤمن إلا بالخوف".

في مشهد أخير من الركام، أمسكت زينب يد عمر،

دفنت رأسها في صدره:
"من رحم النار يولد المطر...
من جوف الندى تبدأ القصيدة الجديدة،
لا أحد يهزم حلمًا كتبته الأمهات بين أصابع اللهفة".
كتب عبد الرحمن في رسائله الأخيرة:
"أمي ماتت في سوق الزهراء لا لأن الجوع أنهكها...
بل لأنها صدقت مرة واحدة أن السيف أقصر من جناح قبلة.
اليوم رأيت القبلة تحفر على حائط نار،
ورأيت وجوه الأمهات تنتصر بلا قصيدة.
الندى ليس رذاذًا من السماء...
إنه دمع الذين فحروا لنا الدرب خارج المدينة".

***

في النهاية، انسحب الجميع من رماد الحريق.
تركوا فوق بقايا البيوت صفحات مبللة، زخات مطر خفيف،
وأغانٍ شاركت فيها جميع الأصوات،
كان كل من بقي في ديوان الحكمة يقول لولده:
"إن المدينة ستنبت يومًا من ندى الليل فوق رماد كتبها،
وستكتب على صخرها سلالة أخرى من الحكاية
لا تذوب بالنار".
وفي القفار البعيدة وقف عمر،

رفع عينيه إلى السماء فشكر على الدرس:
أن النهاية عندما تتحكم بها النار،
لن يجف فيها الندى...
لأن القلم أقوى من الخراب إذا حملته يد تؤمن بالمستقبل.

***

وهكذا انقضت ليلة الذروة،
وغدًا...
ستبدأ المدينة تكتب بنفسها،
وسيجد الطفل الأخير على عتبة الحريق
ندى في قصيدة،
ونورًا خافتًا في أولى دفاتر الخلاص.

الفصل السادس والعشرون

عند أعتاب الفجر

عند منتصف ما ظنه الناس ليلة، وما حسبته قلوب المنفيين بداية فجر، حل عصر مواجيد بين الرماد وجمرة الرجاء لم تعشه قرطبة من قبل. بعد أن سكنت رياح الحريق في الأزقة، ولم يبق من صهيل الليل المدوي سوى أنين الريح بين الأنقاض وصوت أرجل منهكة تسعى، نهض أولئك الذين تجرعوا الدخان والرعب وعرق الذل كي يدخلوا يومًا عتبة فجر جديد، مهما بدا مخادعًا.

كان عمر يحمل جرحًا بسيطًا في راحة كفه اليمنى. نظر إلى خط الدم يتسلل فوق راحة اليد، فشعر أن المدينة كلها تسيل منه. تساءل:

كم جرحًا أبقى؟ كم مدينة حملتني قبل أن أنجبها في مخطوطة أو دفقة قسم منسي على صخرة؟

فوق رأسه تداعى الصمت كأنه هطول حجارة ولدت من قلب النار.

***

بين البيوت التي التهمها اللهب وتركت خلفها جدرانًا خالية وأبوابًا تتأرجح، سار إلى جواره عبد الرحمن.

كان الشاب خفيف الخطى على غير عادته، أما نظرته فكانت جامدة كحلم مستحيل يتحرك في عيني أحد الناجين.

قال:

"أتعلم أين نحن؟

هذا الشارع... طفولتي هنا؛

في تلك الزاوية نزفت ركبتي أول مرة طاردني كلب الحي؛

هناك... في باب السوق، سمعت للمرة الأخيرة أغنية أمي قبل أن يسكتها الجوع".

قال عمر، وهو يلتقط وردة داكنة مسحوقة تحت حطام العتبة:

"اليوم حدثني قلب غريب:

كل ما كتبناه يمكن أن يُحرق،

لكن لا أحد يقدر أن يحرق حتى طفلاً واحدًا حلم بالنجاة أو الموت بشرف إذا كتب الحقيقة باسم أمه".

عند العتبة المقابلة، كانت زينب تجلس وتضع رأسها بين يديها. عيناها تقاومان النوم والإرهاق والخوف.

حمل يوسف العجوز وقد أكلته السنون إلا أنه لا يزال نبي الحبر والرماد. مقعدًا صغيرًا وجلس إلى جانبها.

قال بنبرة تهدهد تعبها:

"يا بنيتي، ما من مدينة عاشت إلا وبنيت فوق أتربة الخراب، وما من فجر سطع إلا اقتطع من جناحه دمعة كان يداريها قبل الشروق...

الفجر ليس وعدًا إلا لمن يسهر، ولا يقبل النور إلا لمن يتدحرج عبر حد السكين".

ذرفت زينب دمعتها دون أن تخشى شيئًا. أمسكت بيد يوسف:

"علمني يا جدي، إذا انتهت القصيدة وبقيت المدينة مغلقة، هل للغد باب آخر؟"

قال يوسف:

"كل ما في القلب باب،

وكل يوم في أعتاب الفجر بداية قادمة،

ولو مشى النور على الركام،

فهناك –فقط– يولد الأمل".

جلس الجميع في فناء صغير، بينهم رماد، ودفاتر، وقليل من الخبز والماء.

صوت سلمى في الزاوية يردد أنشودة قديمة... أغنية طفولية منسية .

كلماتها التائهة تتلوى حولهم وتبعث في رئاتهم شذى مواجد أمهاتهم.

كتبت سلمى على ورقة مبللة:

"كل ما ربحناه من الكبرياء يُغلف بالنار،

لكن كل حجر حاول العسس أن يطفئه بيده،

صار شمعة في الجدار الذي بنينا بين الظلم والضياء".

فوق الأطلال، نهض جعفر الصقلبي؛

سيفه مشقوق من خيانة الأمس، وعيناه حفرتان طينيتان من خوف الماضي وبكاء الذئاب.

عند بيته القديم، وقعت عليه عين طفل، وقف حائرًا في وجه القائد العتيق.

قال جعفر للطفل:

"هل بقي في المدينة أحد يجيد الحب، أم أكلته النيران؟"

أجاب الطفل من غير خوف:

"لا أحد يطفئ قلب أم، سيدي...

والمدن التي ذاقت الحريق تعود أقوى عندما يسقيها المطر".

ابتسم جعفر حزينًا:

"مات فيَّ شيء الليلة،

لكن بقي الحلم في يدك.

اذهب...

واكتب المدينة من جديد".

عند أطراف الساحة المبنية من ركام قصر الزهراء، اجتمع الوراقون المتبقون.

مسح عمر الدم من أصابعه ونزع ثوب الكتابة القديم، ثم قرأ لنفسه بصوت رخيم:

"أتعبتني المحبرة، لكنني لن أكف.

عند أعتاب الفجر حتى الريح تعيد ترتيب جلدها...

فلا نامت الأصوات بعدك يا حبر، ولا رضيت بأن أجزع من الموت ما دام هناك قصيدة تخبئ اسمي وذكراك".

ببطء تسلل شعاع الفجر الأول من فوق الجبال ليلمس جباه الحالمين بقبلة العودة.

تبددت سحب الرماد جزئيًا؛ رأى الجميع ألوانًا طفيفة عادت إلى السماء.

ضحكت سلمى، وقبلت خد حفيدتها التي ضاعت ثم عادت:

"أيها القلب، يا عتبة الفجر،

أشكر ما في الناس من كسر

وأجمل الخوف الذي صار وصية للنجاة".

قرأت زينب في صفحة الجد:

"كل إنسان ضياع،

وكل قصيدة ضوء،

ومن جمعهما في صدره عرف كيف يموت رغيفًا على عتبة المجد قبل أن يُغلق الباب".

***

اقترب عبد الرحمن من عمر، طرح كفه فوق كتفه المثقل:

"أتعلم؟

أنا الآن أكاد أصدق...

الحياة، والحروف، وحتى الحب،

لا يولد إلا في الحطام، ولا يستحقه إلا من خاطر بذكراه أمام السيف".

انسحب عمر نحو الحافة التي تطل على المدينة المزدحمة بجروح وآلام.

خطر في باله أنه قد ينجو وحده لو مد الجناح،

لكنه اختار أن يجمع كل من نجا حول الحبر والجمر والندى،

ليكون أول من يكتب صفحة النور،

وأول من يشعل الكلمة على أعتاب فجر يأبى أن يُحاصر.

في تلك اللحظة، دوى هتاف في أطراف الطرق: سلمى

تغني، وعمر يكتب، وزينب تحمل بياض ندى خفيف في كفها المفتوحة:

"إنا على موعد مع بخور القصص

إذا أشرق الفجر

وعاد الحب في المدينة برغم الذكرى،

في الحكاية نور خرج من الخراب

لينبت في القلب عصرًا جديدًا".

***

وفي آخر الليل، بينما تتلاشى آخر أدخنة الحريق في زرقة السماء الوليدة،

وقف عمر وسط المدينة المترنحة على أعتاب الفجر،

همس في سره...

"أخيرًا تجرأت على النهوض بعد العتمة،

وأقسم أن قلمي...
لن ينكسر بعد اليوم على أعتاب الظلم،
ولا على أعتاب الذكرى،
بل سيولد في صدره ألف فجر...
ولو كتب له أن يكتب حتى بفتات الدموع".

الفصل السابع والعشرون

رماد فوق الدهليز

كان الفجر في قرطبة جديدًا، لم يشبه أي فجر عرفته هذه المدينة القديمة من قبل.

ظهرت الشمس باهتة خلف ستار رمادي كثيف يطاول السماء، كأن نورها يجد صعوبة في اختراق طبقات الرماد التي علقت فوق البلاط والحجارة والأعشاب اليابسة، حتى طيور الدهشة والفرح ابتعدت عن النوافذ.

المدينة تسعل دخانها الأخير، وسكانها يمشون مهدودي القوى، أنصاف أرواح تستعد لاستقبال حقبة بلا يقين.

سار عمر في زقاق طويل بين ما بقي من دكاكين الوراقين:

لا كتب في الواجهات؛ أوراق ممزقة، صفحات محروقة عالقة في فروع الرمان، رائحة خمر فاسد تختلط بعرق الخوف.

حمل عمر حقيبة خفيفة، فيها ما استطاع إنقاذه: دفتر والده المهترئ، رقعتان من كتاب الكندي، ومخطوطة صغيرة لرسائل جد زينب إلى علماء النجوم من بغداد إلى إشبيليا.

توقف عند فتحة دهليز مظلم تحت حائط قديم، لطالما كان طريق الطفولة بين البيت والحلم.

اليوم، صار هذا الدهليز أرض العبور بين رمادين: رماد الذكرى، ورماد المصير... على تخومهما تنهض القرارات المنسية، وتولد المدينة من جديد أو تموت أخيرًا في الذاكرة.

***

اجتمع حوله عبد الرحمن، زينب، سلمى، يوسف، وأحفادهم الجدد وآخر مجموعة من الفارين:

بعضهم يحمل رغيف خبز، والبعض الآخر وردة، أو دفترًا ممزقًا، أو صرة فيها أشياء صغيرة جدًا لكنها لا تقدر عند العابرين بثمن.

قال يوسف وقد وقف يستند إلى باب القبو:

"حين تختزن المدن في رمادها،

لا يبقى للمرء إلا دهليز من ظل

يمشي داخله صوب نوره الأخير،

ولو لم يصل...

يكفي أن يشق الطريق من أجل جيل آخر".

نظرت سلمى إلى السماء الرمادية وهمست:

"أبي كان يروي لي أن الحريق ليس موتًا إلا إذا صدقناه،

وأن الرماد كتاب مفتوح... من يعرف قراءته لا يضل الطريق".

انتبهت زينب إلى وردة بيضاء نبتت جانب باب الدهليز،

"حتى في الرماد، هناك للحياة نافذة"،

قالت وكأن المعجزة تولد من رماد لا من ماء.

بدأ الجمع ينزل بهدوء في الدهليز الحجري.

كان بين جنباته لافتات باهتة...

خطوط غير واضحة...

رسائل قديمة كتبتها أيدي المنسيين والنساء اللاتي فقدن أبناءهن في صدمات الليالي والأعوام.

ضوء خافت من شمعة يتراقص على الجدران المشبعة بالدخان.

هناك عثر عبد الرحمن على نقش غامض:

"مررنا من هنا، نحن أبناء القرن الخامس،

في الرماد شهادة،

وفي الرحيل نبوءة،

وفي العتمة قمر لا يكسر؛

اكتب، ولا تندم،

ففي نهاية الليل دومًا...

يولد بيت من النور".

***

فلاش باك (قصة الرماد الأول):

حين كان والد عمر صغيرًا، احترق بيتهم الأول في قرية منسية. كان الأب يدفن طفلاً مات بالجوع في أول عهد المدينة بالجفاف والنسيان.

وضع الأب حفنة رماد في حقيبة عمر وقال له:

"ستحمل قريتك في جيبك يا بني،

حين ينسى الناس اسمي واسمك

ستلتقط الذاكرة من رمادك دليل العودة".

منذ ذلك اليوم، ظل عمر يحمل رمادًا صغيرًا في قاع حقيبته.

اليوم فتحها فأخرج الرماد، نثره فوق الدهليز وقال في سره:

"لن أتركك يا أبتي في العتمة وحدك...

كل مجد سيمر تحت هذا الدهليز

سيذكر اسمك وأسمائي

في أطفالنا الذين خرجوا من الرماد كما يخرج اللحن من الصمت المفزع".

توقف الجمع في قاعة صغيرة تحت الأرض، لا شيء فيها إلا مقعد حجري دائري نقش عليه:

"مجلس البداية والنهاية"

جلسوا جميعًا، أغمضت سلمى عينيها وبدأت تروي حكاية الهجرة القديمة:

"قبل خمسين عامًا مررنا من هنا.

كل عام كنا نصنع بيتًا من الوهم، ونهدم الحقيقة خوفًا من العسس.

لكن أعظم بيوتنا ذلك الذي بنيناه من كلمات الأمهات...

كل أم مات ابنها في الحريق

أضافت بيتًا إلى المدينة السرية

فصارت قرطبة الأخرى

مدينة لا تحترق..."

سمع الجميع حكاية هادئة عن الفقد والانبعاث، وكان الأطفال يضعون أفواههم على أكف أمهاتهم، ويضحكون في هدوء.

قال يوسف:

"لو مات الحلم في الدهليز

لن تعود المدينة إلا مدينة للقبور،

لكن إذا ولد الحلم من الرماد مرة أخرى،

ستعرفون أن الوراقين لا يهزمون

إلا إذا توقفوا عن الكتابة فوق الرماد".

في أعلى الدهليز وعلى بعد خطوات، بدا أثر ضوء أفق جديد — خيط ضعيف لكنه مصر، يحث الخطى لاختراق كل ما بناه العسس من جدران وهمية حول هامات المدينة.

قالت زينب لعمر:

"انظر...

أصعب الدروب حين تتقاطع نهايته بالفجر،

إذا بقي لنا بعض شيء من المروءة

فلنصنع من خيبتنا شرفًا

ومن رمادنا وعدًا

لجيل لم يولد بعد".

كتب عمر بخط محموم على أحد الجدران:

"خرجنا من الرماد أصغر مما كنا،

لكن فينا قلب يتقن العودة كلما ظن الدهر أن السيف انتصر.
في كل دهليز لهذا البلد،
هناك طفلة تحلم بقصة كتبتها أمها قبل الحريق،
وصبي يمسح العرق عن جبين العائدين".
وعند باب الخروج، وقف الجميع لحظة
يتطلعون إلى شمس تشق السحب الرمادية من بين الدموع.
عبد الرحمن قال:
"هذه ليست مدينة تراب أو موتى،
هذه مدينة أمل يقلب في كل فجر
أغنية على سلم الحنين".
وقف عمر، الشاب الذي كتب أعمار الجميع،
رفع رماده بين يديه وذره في الريح:
"لست وليد الحريق
أنا ابن ما بعد الحريق
أنا وعد الأم في عيني طفل يضحك
رغم كل فزع وعار!"
واقترب الأطفال من الضوء، وهم يركضون على السلالم إلى الشمس الجديدة،
وقفت زينب تنظر إلى عمر وكتبت في دفترها:
"ها نحن نخرج،

لا ذهب مع الحقائب،
لكن المدينة في القلب
لا تنسى من مشى على رماد دهاليزها
قلبًا يحرس اسمه كما لو كان أول طفل في التاريخ،
وأول ديوان للافتداء".
في تلك اللحظة،
رفرفت فوق المدينة مزقة ورقة هاربة
فيها خط رمادي باهت
يقول:
"الدهليز هو آخر امتحانات القلب،
من خرج وكتب
فهو ملك في بلاد المنسيين،
ومن بقي يخشى الضوء
ظل عمرًا حزينًا فوق رماد لا أحد يذكره".
وهكذا، انبثق أخيرًا الأمل من فوضى الرماد،
ترك الوراقون دهليزهم الأخير،
ووجوههم ملأى بالشمس،
وقصة صغيرة نبتت على أطراف المدينة
لن يطفئها حريق في الأبد.

الفصل الثامن والعشرون

إرث القلم والسيف

احتدمت قرطبة على مدى لا يُقاس بالبصر-أو الخوف، بل بالشعور العارم بأنها على عتبة فصل أخير، لا يُرجِعه إلى الوراء إلا معجزة أو جنون، ولا يمنحه للمستقبل إلا من ربح رأسه دفاعًا عن فكرة أو عن قلبه الأخير.

دارت بين الجدران والأرصفة عملية تطهير أخيرة. كان العسس والعسكر يقطعون الأزقة بحثًا عن الناجين، فيما كان الوراقون وأبناء الديوان يدحرجون الحكايات والمخطوطات من يد إلى يد، من جيب صغير إلى حضن كهل إلى قلب امرأة أضاعت ابنها ولم يبقَ إلا الذاكرة تحيكها حول الرسائل في ثنايا الثياب.

وسط هذه الزوبعة، نهض سؤال المدينة الكبير: هل يبقى في النهاية القلم أم السيف؟ أي نور يحملنا إن دخلنا في الجحيم الأخير: وميض الحبر أم بريق الحديد؟

***

في بيت صغير عند حافة السوق القديم، اجتمع الجمع الأخير من ورثة الكتب: عمر وزينب وعبد الرحمن وسلمى ويوسف... وصبية لاجئون جدد وأرامل وسوقيون. اجتمعوا حول شمعة، وأمامهم سيف منسدل كان للجد الأكبر، ووُضعت بجانبه محبرة خشبية داكنة تقطر رمادًا من ليلة الأمس، وكأنها العتبة الفاصلة بين زمنين.

قال يوسف، وهو ينظر إلى السيف بصمت طويل: "ما مات بلد إلا وبُني على حد السيف أو طرف القلم. لكن من مات لأجل قصة، عاش ألف عام ولو كانت القصة ناقصة".

همست سلمى: "خوفي أن ينجب الفقد فينا ابنًا للسيف يتيمًا لا يعرف سوى القتل. لكنني أرى في وجوهكم إرث القلم يمشي. ولو لم تبق مدينة ولا أب".

أجابها عبد الرحمن: "أنتم جيل يشبه المعجزة. المدينة ستدفننا اليوم أو تذرف علينا أول رذاذ مطر جديد، لكنني تعلمت من كل هذا الدمار، أن آخر من يبقى هو الذي كتب ولو على حافة العمر. وليس من قاتل حتى أسقط كل جدران روحه في سبيل وردة أو قصيدة".

***

كان المجتمعون في تلك الليلة يدركون أنهم وسط اختبار المصير النهائي... امتحان إنقاذ ذاكرة مدينة من الإبادة، أو قبول هزيمة الجماعة الأخيرة في أحضان النسيان.

بدأت الأخبار السيئة تتسابق نحوهم: العسس يفتشون المنازل الخفية واحدًا تلو الآخر؛ كبير الوراقين الشريف أُعدم عند السور فجر اليوم بعد أن وُجدت معه قصيدة جديدة لابن عبد ربه؛ طفلة ضاعت في السوق بينما كانت تحمل قصاصة من رق، التهمها المطر أو أكلتها أقدام الفقر.

كان لا بد من قرار: هل يدافعون عن القلم في معركة أخيرة، ولو حتى بلا سلاح؟ أم يُذَرّون الكبرياء ويهربون بالسيف لمن ينفعهم غدًا؟

قال يوسف، وقد أطرق رأسه: "سمعت شيخًا يقول من زمان... إن للمكتوبات أرواحًا أكثر من البشر، وأن السيف إذا لم يكتبه الحق يقطع رأس كل من حاول أن يحلم".

التفت إلى عمر:

"يا ابني... قبل أن يحكم عليك أحدكم أو على مدينتك بالفناء، اختر أيهما تريد أن تكتب به وصيتك: القلم أم السيف؟ لا كلاهما، بل أيهما أنت إذا ترملت المدينة".

***

مونولوج داخلي (عمر):

"طفت بين طرق الهرب مرات.

في كل مرة حملت القلم شعرتُه خفيفًا في كفي إلا حين نطق الحقيقة، فصار أثقل من دم الأمهات.

جربت السيف يوم فقدت أبي في الحريق...

لكن السيف لم يواسني ليلة بكتني أمي على بابها.

الآن... أرى في وجهي ظلال جدودي:

واحد بالحبر، واحد بالدم.

وأخشى. إذا اخترت أن أندم على ما ضاع وغيري يكتب نشيده في الذكرى".

تقدم عبد الرحمن وقال بعينين ملأهما الليل الطويل:

"في رحلتي الأخيرة مع طيور الليل،

سألت نفسي: لمن أنتمي؟

كان الذي يحمل القلم في قلبه يُعذَّب أولاً،

أما حملة السيف... فنادرًا ما يذكرهم الله في وصف الشجعان بعد النهايات".

ابتسمت زينب بصبر عميق، وقالت:

"أنا ابنة نجوم الرحلة والفلك المحروس.

لو احترقت المدينة كل ليل،

سأصنع من أثر القلم طريقًا للسيف الطيب،

ومن سخاء السيف حبرًا جديدًا للغد".

***

لحظة صمت، ثم هتاف فرسان المنصور في الخارج، وصوت الجنود يسحبون أحد الشيوخ.

ارتجف الجمع، سألت سلمى:

"ماذا سنصنع؟

أي الرجال فينا يقيم الليل دون رماد،

ويكتب في السماء فضيلة الوداع دون جرح؟"

رد يوسف:

"كل مدينة جاد بها المصير

احتاجت بطلاً بالقلم... أو بالسيف...

أو بعينين لم تبكيا الفقد إلا كما تبكي الريح أهل الرفاه".

حمل عمر دفاتره، وأخرج ورقة بيضاء، وكتب في صدرها:

"يا مدينتي...

يا أمي الجريحة من ألف عام...

إذا انتهت كل الأشعار

فأطول بيت يكتبه الناس في نهاية الليل

هو بيت للحلم يسكن صدر المنسيين".

ثم وضع القلم جانبًا، ووقف يحمل السيف المسنون بيد مرتعشة.

هنا... على عتبة البيت، التحم صوت عمر وعبد الرحمن وزينب مع جموع حملت ذكريات الآباء والأجداد من جانب القلم والسيف،

كلهم وقفوا كمن يحتضن المدينة من جديد على شفيرها الأخير.

دوّى صياح المعركة...

العسس دفعوا الباب بقوتهم الهوجاء.

لم يجدوا غير وجوه تشرّبت بالحبر،

وأكـف ملوثـة بـدم العـدالة الـتي حلـم بهـا الغربـاء في الأزمنـة الراحلة.

اندفع أحد الصغار فجأة يرمي بنفسه على أرض المعركة،

صرخ عمر وانطلقت سلمى إليه، فسقط في حضنها يبكي:

"اكتبيني في قصتك يا أمي...

حتى لو غاب الكل ولم يبق إلا القيامة".

***

في زحام الدم، كان عبد الرحمن يجمع دفاتر الأطفال المنسيين.

خرج يوسف من الزحام حاملاً أوراقه المبللة.

قال للعسس وهو يرفع المحبرة أمام السيف:

"اقتلوني،

لكن كل قطرة حبر سالت بينكم ستعيد المدينة من رمادها

وتكتب تاريخها في يد طفل،

أو على صدر امرأة غسلت الجميع بدموعها ليلة الانهيار".

توقفت السيوف في برهة دهشة...

على عتبة المجد، انقسم الجند بين من يرغب في القتل،

ومن سحرته شجاعة الكلمة.

قال أحد القادة:

"أعداؤنا كتاب لا ينتهي.

تعلمنا اليوم أن القلم والسيف جرحان في جسد واحد

إذا تأخرت المصالحة بينهما...

ماتت المدينة كلها".

في الصف الأخير، انحنت زينب فوق مخطوطة النجوم:

كتبت فيها وصيتها:

"الأندلس تموت فقط عندما تتوقف عن الحلم.

كل سيف يخسر مجده إذا لم يعلّمه القلم كيف يتوقف في الوقت المناسب".

رفع عمر عينيه إلى زينب... كان الفجر ينبت ثانية خلف العتمة.

همس لها:

"كان القلم باب النور...

وصار السيف بابًا للظل.

لكن وحدهم الذين يُهزمون في المعركة

يقدرون أن يكتبوا آخر قصيدة انتصار،

ولو كانت على عظم المدينة،

وعلى دموع من بقوا في الحكاية... حتى النهاية".

الفصل التاسع والعشرون

أناشيد النسيان

لم تشهد قرطبة فجرًا مثل ذلك الفجر. كانت الشمس هناك، وحيدةً كأنها أضعف عنصر في ديكور المسرح المنكسر، تلمع على شرفات البيوت القديمة، فلا يتسلل الضوء إلا رماديًا في العيون والفؤاد.

ارتج الشارع الرئيسي بما خسر: جدائل الحب والمكتبات،

وبقايا أسماء الشهداء. كل شيء كان يصرخ في صمت، حتى قلوب الناجين باتت تدور مع أصوات الريح بين الأزقة، تبحث عن نشيد يشبه النسيان، عن عزاء أو موشحة لا نغمة لها سوى دمعة لم يجد لها أحد مأوى.

خرج عمر من دهليزه مثل ظل نجا للتو من حتف مؤجل، يحمل بين يديه آخر مخطوطة كتبها ليلة البارحة. ليس فيها حكمة المدن الفاضلة ولا أناشيد الدماء، بل وصف جديد للحزن:

"كل من يمشي في هذا الصباح لا يبحث عن بيت، بل يبحث عن وطن داخلي لم يعد موجودًا إلا في صفحات صدره".

***

اجتمع بقية الرفاق في ساحة كانت بالأمس مسرحًا، ثم مقبرة، ثم معبرًا لجيوش السلطان، ثم عادت –أخيرًا– ساحة بلا اسم.

يوسف جلس على مقعد رخامي مسحوق، ينظر إلى يديه المرتجفتين، كأن بينهما جذور العجز والغفران. قال بصوت مخنوق:

"لم يبق من أعمارنا إلا فتات.

إن كانت الرواية بحجم القلب...

ها هو القلب اليوم فاقد لكل أقفال حكايات النصر،

لم يعد فيه من الصلابة إلا تلك اللحظة حين عرفنا أن الهزيمة وجه حكمة آخر".

اقتربت منه سلمى، بيدها قارورة حبر أزرق، قالت:

"قد لا يُصدّقنا أحد إذا قلنا إن من يكتب أناشيد النسيان يعيش أكثر من قتلة السيف.

النسيان نفسه نشيد، من يعرف مقاماته لن يتعبه وجع، ولن يطالبه أحد بانتصار كامل بعد اليوم".

زينب، التي لم تذرف دمعتها كاملة، جلست تحت عريشة ياسمين ماتت أزهارها.

كل ما تبقى لها... درب من المخطوطات الجديدة، ونقطة من السواد في ضوء عينها، وصورة لأبيها ونساء غيرن التاريخ بأن غنين للحياة في قعر أحزانهن.

همست:

"عرفت الليلة كيف تصير الهزيمة تذكارًا،

كيف يجعلنا العجز أعظم من كل ملك.

وأنا... أكتب، فقط أكتب...

سأطلق قصتي بين الديار ولو لم يبق للطفولة غير تراتيل النسيان".

اقترب منها عبد الرحمن، يحمل تحت إبطه بقايا ديوان:

"المدينة فقدت أبجدية الأمل.

لكن... ألم نر يومًا سحابة مسجونة أدركت المطر؟

من يمشي هنا ويحمل أناشيد النسيان،

يقيم في روحه بيتًا أكبر من كل بيوت المدينة المحترقة".

***

فلاش باك: أم عمر – حوار أخير قبل الرحيل

في زمن كان عمر فيه طفلاً، كانت أمه ترقبه عند النافذة كل صباح:

"بني، لا تغضب من الأيام إذا نسيتك.

النسيان باب من أبواب الله...

احمل فوق ظهرك أناشيدك واجعلها حبل خلاص إن تكسّر الجسر.

البقاء للأغنية الأكثر حنانًا،

وللقصة التي تعرف كيف تنهيها بأقل دمعة وأجمل ابتسامة".

في تلك اللحظة، فهم عمر أن من يكتب قصته للنسيان يكتبها ليحيا، طالما بقي من يسمع الموشح أو يناغي قصة الطفل الجريح.

نهاية الفلاش باك

***

مضت الحياة، خافتةً، راكدةً.

جفت خطى الدموع على البلاط. لم يعد أحد يعرف كيف يصوغ الألم في فم القصيدة.

سلمى تجمع شتات النساء؛ تجمع التراب من فوق القبور الصغيرة، تغني من بعيد:

"يا سلامًا في أكف الفقراء،

يا قصيدة تُغنّى دون مطلع ولا ديباجة...

امسحوا الدمع عن قمركم،

واحملوا في آخر الليل اسم طفل،

وضوء برقع مطر،

وظل المدينة يضمكم يومًا في حضن القصيدة الكبيرة".

يجلس اليتامى حول عبد العليم، يحكون له طرف نوادر الحي، وهو يكتب بيده الهزيلة بالطباشير على جدار،

"النسيان مدينة يقوم فيها كل قلب خسر الحلم وبقي فيه الخوف.

عاش من لم يُخدع ببيت القصر،

ومات من لم يحلم في ركن منزوٍ...

كل بيت نسيناه كانت فيه أنشودة أم تبكي ولدها قبل العيد بيوم".

أما عمر، فقد فاض فيه الليل فجلس يكتب مانشيت الذكرى، صار يردد بينه وبين نفسه:

"الحكاية يلزمها أنشودة للنسيان
كما يلزم العشب مطر تشرين؛
أن نفرح به في عتمة يظنها الجميع لعنة
ونصوغ منها مدينة أكثر صدقًا".
أغمض عينيه وراح يدوّن مونولوجًا:
"لقد مررنا جميعًا من هنا
كل قبلة سرقتها الأحزان
كل طفل مات دون طمأنينة
كل قصيدة حوصرت بين التراب والزهر
كل أغنية رنّت في غياب
كل تاريخ أطفأ النهار شعلته...
كان لنا.
سؤالي الآن: كم أغنية تلزم لجبر قلوبنا؟"
أزاحت الريح ورقة صغيرة من تحت قدم عمر:
كان عليها بيت شعر قديم نسخت عليه سلمى المواويل الأولى:
"كل من ضاع في المدن،
كل من بكى مرتين في الدهاليز
كل من كتب نشيد النسيان مرة
سيرى الورد ينبت في الدمع
فيصير الحلم بيتًا لمن لا بيت له

وذكرى لأم،

وابتسامة لفتاة نامت باكرة على خرائب العيد".

على أطراف السوق، حمل يوسف صرة صغيرة من تراب المدينة وتركها على عتبة آخر مسجد بقي واقفًا.

قال:

"لن نتلو الموشحات اليوم؛

اليوم نوقد ذكرى من بقي في دمي

ولنختم زمن الهزيمة بأنشودة

تصل إلى نهاية النسيان ولا تبدأ من أول وجع.

فالنسيان أحيانًا مدينة ثانية

يمشي فيها اليتيم على قدميه

ويحيا العشاق فيها بلا مجد...

لكنهم يغنون،

يغنون حتى يصير الدمع ذهبًا

ويصبح الطفل بطلاً،

وتحمل المدينة معنى القصيدة بعد أن جفت كل الأزقة".

صمت. شعر الجميع أن الزمن نفسه توقف عن الدوران.

على حافة النهار، انطلقت من أحد الدور القديمة سمفونية غامضة؛

مزيج من عود قديم ونقر كف صغيرة على دكة حجرية، وترددت أبيات نسيان في زوايا السوق.

قال عبد الرحمن يخاطب أطفالاً ضائعين:

"يا أبنائي،

المدن التي تهزم أملكم،

هي المدن التي تعرف كيف تعدّ النسيان أنشودة.

غنوا ولو بصمت

اكتبوا ولو في جدار مكسور

فمن غاب في الزحام

لا يُمحى إلا إذا اختار أن يمشي في ركب النادمين".

عند المغيب، جلست سلمى على العتبة تصغي لأنشودة الأم والسماء والمدينة والذكرى.

بين يديها صبية صغيرة كانت ابنتها بالرضاع أو الحلم،

همست:

"لم يبق من حلم الأمس إلا ما تسمعه الآن.

كبرت المدينة يا ابنتي، على أناشيد النسيان

لكن قلبك مهما تألم...

سيعرف أن لا أحد يهزم الحكاية إن كبر فيها الأمل

وتحوّل النسيان إلى شمس يكفي أن نتغنى بها للهاربين من العتمة".

أسدل الليل ستاره الأخير.

كتب عمر في دفتر الحكاية العظيمة:

"وحين انتهينا من الحرب،

بقي لنا وطن في دمع الطفولة

وأنشودة للنسيان

تحمل اسمنا كيلا يحترق ثانية

ويعلم الدهر أن المدن لا تموت

ما دام في صدور أبنائها أنشودة...

ولو كانت من نار النسيان".

الفصل الثلاثون

نور لا يُطفأ

لم يكن في الأفق ضوء فجر مألوف. كان ضياءً مبتكرًا، هادئًا، أصفر شاحبًا يتسرب فوق بلاط قرطبة، يخبر كل بوصة في المدينة أن العتمة قد تعبت، أن للأمل أنينًا يمكن أن يصير كلمة، وأن الموت، مهما طال، لن يكون جسورًا بما يكفي ليملأ كل زوايا القلب.

كان عمر أول السائرين في الشوارع ذلك الصباح. حمل في صدره كتابًا أبيض، بلا حبر، كأن العالم كله ينتظره ليروي أنشودة البداية، لا نهاية الحكاية.

تبعته زينب، مرتدية خمارًا من الحرير تجاوزه الزمن بلفاته ولم يقدر أحد على إحراقه.

عبد الرحمن في إثرهم يمنح الدرب وقع أقدام طفولية، يسترجع كل دقيقة فارقة بين دهاليز الفقد وحضن العزاء.

***

في ساحة جامع المدينة، احتشدت قرطبة كلها... من بقي ومن عاد ومن أفاق من رماد الحريق لا يحمل معه شيئًا إلا ذاكرة جديدة العمق.

على حافة الأشياء، السور يعاند الريح، الأعمدة تصلي وحدها، الشمس تصلي وحدها أيضًا، وتعرف أنها الأخيرة التي ستسقط في يد الطفل الذي لن يرى في الخراب سوى وعد آخر بالنهوض.

وقف يوسف، شيخ الحكاية، على عتبة التاريخ.

وجهه مزيج من كثافة الندوب وضوء داخل عينيه يبعث على الرجاء.

قال للجمع، وصوته يتردد بين صمت وحشرجة:

"اليوم نختم رواية لم تبدأ بعد.

كل ما جرى –دم، جوع، شعر، نسيان– جرح صغير في بحر الحكاية.

قد نظن أننا هنا نقفل الأبواب، لكنني أرى من سيفتح للصغار نوافذ أبعد من البحر، أبوابًا على السماء، على كتب جديدة، لا يطفئها الدهر".

أدار يوسف بصره ناحية عمر، وتناول منه الدفتر الأبيض،

قال وهو يمسح على رأسه:

"كل ما يحمله الإنسان ينقلب يومًا إلى سطر أو بيت شعر أو حتى اسم ينقذ مدينة يومًا من حتفها".

انحنى الجمع حزنًا ورضًا أمام الطريق المفتوح؛ كل واحد منهم يحمل قصة –أو ندبة– لكنه يبتسم. ليس في الابتسامة ثناء بل مراجعة:

كيف يمكن للانهيار أن يكون بذرة حياة؟

***

تقدمت زينب. أنشدت أغنية جدتها حول إرث النجوم.

رفعت دفترها، وأمسكت قلمًا منحوتًا كان لعمر.

كتبت في الصفحة الأولى:

"في الأيام الكئيبة

يتحرك الحبر إلى صدر الأرض،

كل من قرأ الكتب القديمة

يعرف أنه ما من ظلام إلا بنجم،

وأن النساء حين يكتبن في الدمع

يرجعن للأمم ميراثها

ولو نامت القرون بلا ذاكرة".

وقفت معها سلمى، قرّبت الأطفال من جسدها وجعلتهم ينسخون أسماءهم على ورقة حمراء علّقت على باب المسجد.

قالت:

"حتى لو تغير الزمن ألف مرة، سيكتب الأطفال دفاترهم الأولى أمام الخراب، يرسمون الشمس بقلم لم يلوثه وعد الكبار".

***

عبد الرحمن تأمل بيوت المدينة الخاوية، واستنشق رائحة الخبز الخارج من فرن نجا بمعجزة.

كان الجوع أبسط ما عرفت المدينة من الألم، أما الجوع للحكاية فثلمة في القلب، لا يشفى إلا بأن يروي كل واحد أسطورته لنفسه أولاً، وللعالم بعد ذلك.

قال عبد الرحمن بصوت رخيم:

"اليوم يغني الجائعون في الشوارع،

لا مهزوم منهم ولا ملك...

كلنا وردة في يد الشمس الجديدة

كلنا جملة من كتاب تركه آباؤنا

وها نحن نملأ العالم بحبنا للمرة الأولى".

***

حين مالت الشمس للغروب، اجتمع عمر بمن بقي من الوراقين وأهل الديوان حوله.

جلسوا في مقهى صغير على طرف السوق، صار منذ البارحة مجلس ذكرى حي.

تحلقت الوجوه حوله، وأخرج كل واحد دفتره القديم...

(سلمة المعلمة، عبد العليم الفلاح، رشا بنت الفقيه، عبد الرحمن اليتيم الذي أصبح يافع القلب)

قال عمر بحزم حنون:

"في واحد منا مليون مدينة.

اليوم، سنتبادل الحكايات دون خجل.

سنعترف أن فينا الذين بكوا

وفيهم من باع وخان وجن.

من بقي يحمل نورًا عمره لا يطفأ

لا يكتبه سلطان ولا يطفئه رماد ولا يُسكته يوم كئيب".

قام يوسف ليدفن الدفاتر القديمة على عتبة جامع المدينة.

قال وهو يدفنها:

"يا بنيتي، يا أولادي،

هذه كتبنا طي الأرض.

من وجدها يومًا يعيدنا للحياة،

لسنا سلالة الموتى، نحن سلالة من لم يقبلوا

أن يكونوا بلا حلم".

مونولوج عمر – فصل النهاية:

"صرت عجوزًا في لحظة.

لم أعد أرتعد من الصمت

ولا من التجاعيد ولا من انطفاء ضوء الشمعات.

اليوم عرفت لماذا كتب الجدود...

أن كل نور يولد فوق الركام وينحني أمام الرماد

لا يقبله النسيان ولو طال...

فالنور...

لا يُطفأ".

أمام جموع المدينة، سحبت زينب الفتاة الصغيرة –حفيدة الطريق، زهرة الدهاليز المنسية– وقالت جهرًا:

"يا أبناء قرطبة،

سنبدأ اليوم ملحمة الخلود.

سنكتب في المدارس كل فجر،

وفي الزوايا كل مساء،

على أرصفة المطر وفي الهواء

القصائد التي نكت عليها الأجيال بالعناق والحرية".

صاحت سلمى:

"لا يشبهنا السلطان اليوم،

ولا يشبهنا الخراب.

مثل النهر بعد الطوفان

سنزرع الحقول بكلام الخير،

ونغني للريح:

النور منا

لا ينطفئ".

وبينما صعدت الشمس إلى عليائها، تجمعت النساء أول مرة حول مكتبة أُعيد فتحها،

أعطى عمر المخطوطة البيضاء لطفل لا يجيد اسمه بعد

وقال له:

"دورك أن تبدأ.

لا تجعل ما رأيته في العمر يموت من دون أن تكتبه.

ابدأ من قلبك،

من خوفك

من حبك

من وجدك

واكسر للغد أول قيد في حروفك".

في الختام، دخل الجميع المسجد وعلّقوا قصائدهم عند الباب بضفائر من ورد الجبل.

مرت قافلة من طيور الحلم على المئذنة

وصاح الرهبان في الأديرة بالسلام،
وغنت الفتيات بمختلف الألسن:
"يا أمنا التي بكينا على بابك،
ارجعي لمكانك في القلب.
يا أبانا الذي هاجر في الدهاليز
ازرع قلبك في النجمة.
السلام علينا في الكتب وفي الأغاني
وفي نور من المدينة لا يُطفأ".

***

في الغد، كتب أحدهم على الصفحة الأولى في أول كتاب يُرسل من قرطبة إلى أطفال العالم:

"هذه المدينة كتبتها دموع أم لم تستلم خبزًا
وزخرفتها يد طفلة لا تعرف إلا ضحكتها.
نحن الذين ظللنا للضياء ألف جرح.
وكنا كل الحكاية
حين انطفأت جميع الأنوار...
إلا نور الحلم
نور لا يُطفأ".

النهاية

انتهت الرواية، وانفتح الإرث.

أنت الآن يا القارئ ابن هذا النور وبطل هذا الحبر، أنت سليل أولئك الذين كتبوا كي لا يُطفأ النور في مدينتك يومًا.

كل ما مرت به قرطبة وأهلها... صار نورًا في ضميرك،

ورسالة لا تموت إلا إذا مات الأمل.

في قلب ليلٍ أندلسيٍّ ثقيلٍ يحكمه ظلُّ الحاجب المنصور، تكتب قرطبة سيرةَ بقائها بين السيف والقلم، بين الشاعر والمُنفيّ، بين امرأةٍ تحفظ إرثَ النجوم، وناسخٍ يشتهي خلاصَ الحرف.

وسط حملةِ تطهيرٍ لا ترحم، يستيقظ عمر بن يوسف ـ الناسخ الحالم ـ وزينبُ ابنةُ بيتِ العلم المنسي، ليجد كلٌّ منهما نفسه في متاهةٍ مجهولة: مطاردةِ سرٍّ مدفون، وخريطةِ كتبٍ لا تحتمل الضوء، ومصيرِ مدينةٍ لم يعدْ لها ما تخسره.

بين الخيانة والوفاء، في دروب الدهاليز وكهوف المجهولين، يولد فجرٌ جديد على رمادٍ متراكمٍ من الكتب والأمهات والأحلام.